9me Année No. 437

Lundi - 17 - 11 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٣٧ « القاهرة في يوم الإثنين ٢٨ شوال سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

أدب اليوميـــات

للأستاذ عباس محمود العقاد

(١) ... هل تكتبون مذكرات يومية ، أو هل في نيتكم كتابة مذكرات أو تدوين ترجمة لحياتكم الحافلة كما يفعل كتاب الغرب ؟ وهل لا توافقونني على أن كتاباً كهذا تصفون فيه ما صادفكم من عقبات وما تغلبتم عليه من الصعوبات ، وتقصون فيه ما لا يعرفه الكثيرون عن حياتكم الشخصية والأدبية والسياسية يكون درساً مفيداً لشبان هذا الجيل والأجيال المقبلة ؟

(٢) هل معنى عدم إقدامكم على الزواج إلى الآن أن الحياة الزوجية تقيد رجل الفكر أو تشغله عن أداء رسالته ، أم أنكم لم تهتدوا إلى المرأة التي ترونها المثل الأعلى لزوجة المفكر ؟

(٣) لكل إنسان أماني وآمال ومطالب ، ومطالب من عاش لا تنتهي ... وهي تختلف باختلاف الأحوال والأيام ؛ ولكن ترى ما هي أعظم أمنية تتوقون إليها في الحياة ؟

(الأسكندرية) أحمد عبد اللطيف الحضراري
بالمعهد البريطاني

* * *

هـذه فقرات من رسالة وصلت إليّ من الأديب صاحب الإمضاء المتقدم ، وفي الجواب عن بعض أسئلته ما يصح أن

يشترك فيه حضرات القراء ، لأنه من موضوعات الكتابة العامة التي تطرق في الكتب والمجلات

وأول هذه الأسئلة سؤاله عن المذكرات اليومية وما أدونه منها الآن أو بعد حين

وجوابي عن هذا السؤال أنني بدأت حياتي الأدبية — منذ الدراسة الأولى — بكتابة المذكرات والتعليقات على ما أطالع وأشاهد في كل يوم ، وإنني لم أنقطع عن كتابة هذه المذكرات إلا في السنوات الأخيرة التي لا تتجاوز خمس سنوات

فأول كتاب صدر لي هو « خلاصة اليومية » واسمه يدل عليه . فقد كان تلخيصاً لما أثبته في مذكراتي اليومية من الآراء والملاحظات والأصول التي أتناولها بالتوسع إذا خصصتها بالكتابة

ثم ألفت كتابي « ساعات بين الكتب » وهو غير الكتاب الذي طبع بعد ذلك بهذا العنوان . فإنما كان الكتاب الأول تعليقات على القراءات التي تفرغتُ لها وأنا مقيم في أيام الحرب الماضية بأسوان ، ولم يكن مجموعة مقالات أو فصول نشرت في الصحف كالكتاب الذي يحمل الآن هذا العنوان

لكن المذكرات اليومية نوعان وليست بنوع واحد ؛ فهذا الذي ذكرته مقصور على شئون الفكر والقراءة كأنه فصول صغيرة أو موضوع متفرق في عدة صفحات ، وهو النوع الذي أكثرت من الكتابة فيه ، وعندي منه الآن مجموعة صالحة في انتظار الطبع كما هي ، أو في انتظار التوحيد والتأليف ، لأنها تصلح لهذا وذاك

أما النوع الآخر وهو المذكرات عن حوادث الحياة وعوارضها فلم أشرع في الكتابة فيه إلا مرة واحدة طالت بضعة شهور ؛ ثم مزقت ما كتبت وأحرقته ولم أعد إلى تجربة الكتابة في هذا النوع مرة أخرى ، ولعلي لا أعود

ولكني لا أحكم على أدب اليوميات كله بالتمزيق والإحراق من أجل أنني اضطررت إلى تمزيق ما كتبت وإحراقه ؛ لأن أسبابي غير أسباب الآخرين ، ودواعي غير دواعيهم ، والمحظورات التي أتقيها غير المحظورات التي يتقونها

فالواقع أنني من أرغب الناس في قراءة اليوميات والانتفاع بها ، وهي في اعتقادي أنفع القراءات للمؤرخ والمستطلع لأحوال الأمم وسرائر النفوس ، ولا سيما المكتوب منها بخلوص نية لا يشوبها التكلف والرياء ، ومعظم كتاب اليوميات ممن يتوخون خلوص النية وصدق الرواية عند ما يخلون إلى صفحاتهم الخفية ، لأن المسألة عندهم « ظاهرة نفسية » أشبه بالتوجه إلى محراب الاعتراف ، وكأنهم يخففون أعباء ضمائرهم بإلقائها عنهم في صفحات مسجلة يرجعون إليها ويؤمنون بصدقها وأمانتها ، كما يخفف الإنسان أعباء ضميره بالإفضاء إلى صديق أمين ؛ فهم مسوقون إلى صدق الكتابة بهذا الشعور العجيب الذي لا يستريح إلى غير الأمانة ، وفي هذه الراحة ضمان للقارئ أو ضمان للحقيقة أقوى من ضمان المحاسبة والبينات

واليوميات أدب مستفيض في اللغات الأوربية عامة وفي مقدمتها اللغة الإنجليزية ، وهذا الأدب موضع دراسة المؤرخ والناقد النفساني ، والفيلسوف ، والباحث الملي ، وكل من تعنيه سير الجماعات والأفراد ؛ يشتركون في دراسته وبحثه تارة لبيان الأسباب التي تدعو الناس في فترة خاصة من الزمن إلى تدوين مذكراتهم والعكوف على أسرار ضمائرهم بمعزل عن الجماهير وشواغلهم العلنية ، وتارة لتحقيق الوقائع واستكشاف دخائل الرجال ، وتارة أخرى للمقابلة بين أحوال الجو في البقعة الواحدة بين زمان وزمان ، ويأتون في جميع هذه التعليلات والتخريجات بما يلذ الوقوف عليه ويفيد !

وما من كاتب يوميات في الحقيقة إلا وهو ظاهرة نفسية كثيرة البدوات والغرائب ، كثيرة الجوانب التي تتعلق بها مباحث النفسانيين والحكماء . وقد أشرت إلى طرف من ذلك في مقدمتي للجزء الثالث من مذكرات أحمد شفيق باشا رحمه الله حيث قلت عن يوميات صمويل بيبز Samusl Bepys أنها موضع الحيرة عند بعض النقاد ، « فلا هم قادرون على أن يجزموا بأنه كتبها لنفسه ، لأن الإنسان لا يكتب كل هذه المجلدات وكل هذه الحوادث ليطلع عليها وحده ، ولا هم قادرون على الجزم بأنه كتبها للأجيال المقبلة ، لأنه كشف فيها أسراراً عن سيرته وسيرة أقربائه ، كان معروفاً أنه يخفيها أشد الإخفاء ويود لو يتعقبها بالمحو والنسيان »

ثم ضربت لذلك أمثلة شتى منها أن مسألة من المسائل البيتية

كدرته فأتلف جميع أوراقها وأسانيدها ثم عاد إلى مذكراته فدون فيها جميع تلك الأوراق والأسانيد بأقصى ما استطاع من إسهاب وتفصيل !

هذا هو العجب، وهذا هو موضع التأمل والدراسة ، وهذا الذي يجعل اليوميات مرجعاً صادقاً لدارس الحوادث ودارس الأخلاق .

فأنا لا أدين أدب اليوميات كله لأنني أحرقت يومياتي ولم يخطر لي أن أعيد التجربة مرة أخرى

وإنما يباعد بيني وبين كتابة اليوميات أمران كلاهما حقيق بالإثبات لأنهما أيضاً من ظواهر النفسيات وظواهر الفترة التي عشت فيها

وأول الأمرين أنني غير مطبوع على التوجه إلى محراب الاعتراف ، لأنه ضرب من الاستغفار لا أستريح إليه ، أو لأنني أدخر لنفسي خفاياها وأنزهها عن البوح بها لأحد غير مستثن من ذلك إلا القليل

فالمسألة التي تلعج خاطري وتثير شعوري وتتسرب إلى أعماق ضميري ليس مصرفها عندي أن أسجلها كما هي أو أنفض بها إلى أذن سامع قريب ، وإنما مصرفها أن أعبر عنها في الشعر والكتابة ، وأن أعرضها للتحليل والتقليب على وجوه شتى . فإذا حللتها واستخرجت معناها فقد استرحت منها وفتحت مغالقها ولم يبق فيها عندي موضع للمعالجة والاستقصاء

ورب كارثة نفسية من المقيات المقعدات تسكن كما يسكن البحر المائج في لحظة واحدة ساعة انتهائي إلى مقطع الرأي فيها ، أو ساعة علمي بما ينبغي أن أقابلها به من عمل . وهذا الذي ينوب في طبيعتي مناب الإفضاء والبوح وما أسميه التوجه إلى محراب الاعتراف

أما الأمر الثاني الذي دعاني إلى إحراق يومياتي فهو راجع إلى حوادث الفترة التي نعيش فيها لا إلى البواعث الخلقية

وخلاصته أنني دونت تلك اليوميات لأستعين بها على تاريخ الفترة وتحليل أخلاق رجالها . ثم رأيت في أثناء الثورة الوطنية وبعدها بقليل أن ملفقي التهم ومدبري المكائد يستعينون بأمثال هذه اليوميات على طبخ القضايا وإحراج الأبرياء ، وظاهر لي أن إثبات ملاحظاتي على رجال الفترة من العسر بمكان مع تعرض اليوميات للمصادرة والسؤال ، فآثرت إحراقها أيام اشتداد المحاكمات والمصادرات وأحرقت معها رسائل شتى وصوراً وأوراقاً لها في حياتي الخاصة أثر لا يزول ، وفاتني بإحراق هذه وتلك نفع كبير في مراجعة الحوادث التاريخية وصيانة الذكريات النفيسة ، ولكنه أقل من الضرر الذي كنت متعرضاً له ومعرضاً له غيري لو أبقيت عليها وحدث ما كنت أتوقعه بسببها

على أنني ودعت كتابة اليوميات ولكني لم أودع كتابة الذكريات أو كتابة ما يقول عنه الأديب صاحب الخطاب أنه قصة من الحياة الشخصية والأدبية والسياسية تكون درساً مفيداً لشبان هذا الجيل والأجيال المقبلة

ففي نيتي وأمام ذهني كتاب كبير أكسره على أجزاء منفصلة وأفرغ كل جزء منه لناحية مستقلة تتناول حياة الأديب وحياة الصحفي والنائب والسياسي معاً وحياة الإنسان في خاصته وعامته وحياة الباحث عن نفسه وكونه وإلهه وسائر ما يتصل بالعقيدة والسريرة الدينية

ويخيل إلي أنني لو فرغت سنة واحدة مكفي المؤونة استطعت أن أفرغ من أجزاء هذا الكتاب كلها بغير عناء كبير ، لأن أصوله وموضوعاته قلما تحوجني إلى مراجعات تفصيلية بعيدة من الذاكرة والوجدان

* * *

تلك كلمتي الموجزة في اليوميات ، وما كتبت منها وأنوي أن أكتب بعد حين

أما سؤال الزواج ، فقد أجبت عنه في (الرسالة) جواباً يغني فيه الإجمال عن الإسهاب ، وكل ما أزيده هنا أنني أستغرب المصادفة التي ساقت إلى أربعة أسئلة في شأن الزواج خلال شهر رمضان ، وإن كان أحدها لا يستغرب في وقت من الأوقات ، لأنه مزمن قديم يأتي من السيدة الوالدة على غير ميعاد ! فهل شهر رمضان — وما يعقبه من أفراح الأعياد — هما المسئولان عن مصادفة الأسئلة الثلاثة الأخرى ؟

وأما أمنيتي التي يسألني الأديب عنها سؤاله الأخير ، فلعلها لا تشرح في ذيل هذا المقال ، وأحرى بها أن تؤجل إلى مقال قريب ، لأنني لا أطرق منها جانباً يخصني دون غيري ؛ بل أطرق منها ما يصح أن يمتد إليه كل بحث وينظر فيه كل ناظر

عباس محمود العقاد

١٢ ـ أومن بالإنســـان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

التحرر من التاريخ — نحن غير البائدين — تلاميذنا أصح علما بالطبيعة من أرسطو — العلوم والفنون ليست تحفاً تقتنى منفصلة عن النفس — لا بد من قلوب حديثة — من جرائر التاريخ — الانسان يصنع أقداره — إستطراد إلى مشكلة القدر — إلى المتطرين بحثا من غير نفوسهم — الآن فقط وجد الحق أدوات الدعوة لتصحيح الأفكار عن الحياة — عباب التاريخ يجرف الطفولة النضرة مع الجيف القذرة ! — لا مفر من عزل الطفولة لتصحيح أفكارها — مناقضات بين ما فى الشوارع وما فى الجامعات — صورة من دراستنا الحالية للتاريخ — طبائع مدلسة ليست بنت زمانها — ما يستهلكه الخير وما يستهلكه الشر — هل مضت الحاجة إلى دور الغرائز فى خدمة الحياة ؟ — حرب الآلهة

طالما ألححت بقلمى على التاريخ : هذا الجدار المائل ... هذا السد القوى ... هذا السجن العتيد ... لأحطمه وأنقذ نفسى من جوه المعتم الخانق !

وطالما قلت : ما دام هذا الماضى القاصر الجاهل الخرف الوحشى يحمله الإنسان فى أوعيته وأعصابه إلى الحاضر ، فهو دائماً فى ضلاله القديم ، كما يعيش حامل الميكروبات الضارة دائماً فى أمراض ونكسات .

والحقيقة التى يجب أن توضع نصب العيون الآن هى أن هذا الإنسان العصرى هو غير الإنسان البائد بلا شك ! هو غيره فى علمه وإدراكه للطبيعة وتذليله لعقبات الحياة واضطلاعه بأدوات تحقيق الاحتياجات وتفتيحه لكنوز الأرزاق والأقوات

فكيف يرضى أن يحمل ذات قلبه القديم وغرائزه كما كانت وأن يحمل غشاوات القرون الأولى ليعيش بها فى عصر الانكشاف والظهور والقدرة الفائقة ؟ !

كيف يرضى من ملك زمام اليابس والبحر والجو وذرع الأرض بالطول والعرض ، ونبش كنوزها أن يعيش بأساليب الذى كان لا يعرف غير طريق القرية أو النجع أو الجزيرة التى يعيش فيها ؟

إن تلاميذ المدارس الابتدائية أصح علماً عن الأرض والطبيعة من سقراط وكونفوشيوس وأرسطو وابن سينا والفارابى وغيرهم من حكماء القدماء ؛ فكيف ترضى الإنسانية الحالية أن تعيش حياتها النفسية بأساليب جهلاء عصورهم ؟ !

إن التاريخ النفسى للحياة الإنسانية ينبغى أن يدرس بعين غريبة عنه ناقدة له فى شك وارتياب . فما هو إلا سجل جهاد الناس فى سبيل وصولهم إلى حقائق هذا العصر الحالى . فما يليق أن تؤخذ مرحلة من مراحله محطاً يطمئن الناس إليه بعقولهم ؛ لأن مراحله السابقة كانت مراحل موضعية ضيقة خاصة بأمة ما من أممه . ولكن أمر أمم الناس الآن أمر جماعة توشك أن تتقارب أهدافها وتشتبك مصالحها وتشتجر اشتجاراً لا خلاص لفروعها منه أبت أم كرهت

هل من المعقول أن نلبس ملابس الحياة الحديثة على الأجساد ثم لا نغير ملابس النفس ؟ أنكون قروداً وببغاوات تحكى قضايا العلم الطبيعى بألسنتها وظواهرها ولا تمثله قلوبها ونوازعها ؟

هل يكفى من العلم أن يقتنى فى الحوافظ والذاكرات غير ممزوج ولا مدمج فى الأعصاب والأحاسيس والانفعالات ، بل يوضع فى الرءوس كما توضع التحف والدمى على الرفوف والمناضد للزينة والخيلاء والبيع والشراء عند الحاجة ؟

إنى أرى العلم ينبغى له أن يكون فى كياننا كالماء فى أعواد الشجر الحى لا يقف تسربه إليه وتفريع حياته إلا إذا جف وأحطب ومات ... فلا شجر بدون ماء ...

إن عملية عظيمة فى داخل الحياة النفسية الإنسانية ننتظر إجراءها لبناء قلوب حديثة تتلاءم مع الأفكار الحديثة !

* * *

ومن آثار التاريخ فى الحياة المصرية هذا الخلاف العنيف بين الأديان بعد ما سطعت شمس الله الواحد ... وبعد ما أدرك العقل التناسق والانسجام والتوافق بين قوانين الطبيعة مما لا يمكن أن يكون إلا بإدارة يد واحدة !

ومن آثاره كذلك فيها أننا لا نزال نخضع لمنطق الأمم التى كانت تعيش متحاجزة فى سدود وتخوم تفصل بين عقولها وأخلاقها ومرافقها ، وتجعل الدنيا دنيوات ، والإنسانية الواحدة أنواعاً متباعدة ، وتجعل من اختلاف الأجناس والألوان واللغات اختلافاً أصيلاً جوهرياً بين الطبائع الإنسانية يبيح هذه العداوة الفاجرة المريرة المخربة للعمران ، ويحمل على المبالغة فى البطش والطغيان ونسيان الصفات المشتركة بين بنى الإنسان

ومن آثاره كذلك أن أكثر الناس لم يدرك بعد مدى الانتقال العظيم والترقي السريع والتفاوت البعيد بين الحياة قبل القرن العشرين والحياة فيه؛ ولذلك لا يزالون يضمرون في أنفسهم اعتقادات متشائمة في الإنسان ومستقبله، ويدينون في الحياة بدين السخط وإطلاق الغرائز الخطرة والآراء التافهة التي تجعل الإنسان يعبر الحياة بدون أن يجتهد في ملء نفسه بأسرار التكوين، وفي إضافة كشف أو اختراع أو منفعة إلى ميراث الحياة الإنسانية... وليس هناك شيء أضر على الحياة الإنسانية من نزعة التشاؤم والتبرم والسخط على حاضر الإنسان ومستقبله!

ومن آثاره كذلك أننا رضينا أن يعيش أكثرنا جاهلاً أمياً لا يفقه مبادئ العلم والحياة التي في رءوس العلماء مع أن نمو تلك الأسرار يتغير ويتقدم كل صباح ومساء... وكأننا بذلك وأدنا هؤلاء الأحياء ودفناهم كما كانت تفعل جاهلية العرب بموءودة الأجساد... وكان هذا الإهمال منا بمثابة فعل من رأى أهله يموتون ظمأ واحتراقاً، وهو على علم بمنبع ماء غزير يطفئ غلتهم ولوعتهم ويحيي نفوسهم ولكنه لا يسعى إلى إنقاذهم...

ومن آثاره كذلك أننا نعيش في ذهول عما يحيط بحياة الإنسان الآن من كنوز تتفتح وأعاجيب تخترع، فترى الناشئ منا ينشأ بين القطارات والسيارات والطيارات والراديو والتليفون والغواصات والفونوغراف والفوتوغراف والسينما وغير أولئك، ثم يجهل أصلها وتركيبها ولا يدري عنها شيئاً ولا يكلف نفسه سؤال أحد عن نبئها العظيم... كأن ذلك شيء تافه أو أمر بدهي لا يحتاج إلى فكر شديد وتعجب بالغ!

ومن آثاره أننا برغم إدراكنا الآن كثرة الأقوات وكفاية الأرزاق كثرة وكفاية تشبعان حاجات الإنسانية جميعها لو وزعت توزيعاً معقولاً بدون احتكار وتحكم وإتلاف لجانب من المحصول في سبيل الاحتفاظ بالأسعار المرتفعة... لا نزال نطيع الجشع والطمع وننسى دواعي العدالة والرأفة بالطبقة المحتاجة المجهودة!

ومن آثاره أننا لا نزال نغطي عجزنا وكسلنا بالاستسلام لما نسميه «الأقدار»، مع أن مفتاح الأقدار بأيدينا، ومع أننا نرى أننا نصنع أغلب أقدارنا، ومع أن دائرة الإيمان بالأقدار في الدين لا تتعدى منطقة الصبر على المصائب والكوارث التي تأتي إلينا بدون حيلة أو خيرة منا، ومنطقة الرضا بما نحصل عليه بعد الجهاد...

وهنا مكان استطراد إلى مشكلة الأقدار لا بأس أن نرسل فيه بعض الحديث:

هناك أقدار نريد أن تتحقق، وهي أقدار الخير والسعادة، وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتي:

أن نسعى جهدنا للتمهيد لتحقيقها بالأخذ بأسبابها التي تهدينا تجاربنا إلى أنها عوامل جالبات لما نسعى إليه. فإن تحقق ما نبغي فذاك، وإن لم يتحقق — وهذا قليل نادر — علمنا أن الإرادة العليا المسيطرة على وجودنا لها غاية غير غايتنا في تلك المسألة التي نسعى لتحقيقها. والإيمان بتلك الإرادة يقضي حينئذ بالإذعان والتسليم لقدرها العالي الذي لا حيلة معه

وهناك أقدار نريد ألا تتحقق، وهي أقدار الشر والشقاء، وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتي:

أن نسعى جهدنا للتمهيد لدفعها بالأخذ بالأسباب التي تهدينا تجاربنا إلى أنها عوامل دافعات لما نخشاه ونتجنبه. فإن كان ما نبغي فذاك، وإن لم يكن كان علينا كذلك الإذعان والتسليم للإرادة العليا.

تلك هي مشكلة الأقدار في جانبيها. وفي كلا هذين الجانبين رأينا أن على الإنسان أن يقدم جهده في التمهيد لها أو دفعها. فإذا وقف أمامها منتظراً مكتوف اليدين مشلول التفكير كان حرياً أن تأتي إليه أقدار الخير فلا ينتفع بها إذ لم يبذل لها جهداً من فكره وأمله، وكان حرياً كذلك أن تنزل عليه أقدار الشر فلا يسعى لتخفيفها وأن يجزع منها جزع الذي يظن أنه كان في مقدوره أن يدفعها ولكنه قصر في ذلك، فيظل ملوماً محسوراً...

* * *

والحياة العملية ذات البراهين البريئة من الجدليات توحي إلينا بل تحدثنا بكلمات مقروءة مسموعة بريئة من غموض الرمز والإيحاء أن الذي ينتظر أقداره بدون أن يسعى لجلبها أو دفعها لن تكون حياته إلا كحياة ذلك البدوي ساكن الصحراء الذي لا يعمل عملاً لجلب الماء، وإنما هو ينتظر سقوطه عليه من السماء، وطبيعي ألا تكون آماله بيده، وأن يعيش حياته معرضاً لأخطار

الظمأ والجفاف ممزق القلب مهدد العيش يتجدد قلقه كل سنة لأنه لم يمسك من أسباب الحياة إلا بحبل بعيد هيهات أن يكون في يده دائماً ...

وأين تكون حياة هذا البدوي من حياة بدوي آخر سعى حتى اهتدى إلى ضفاف نهر تمسك منابعه بجوانب السحاب ، وجلب الماء إليه جارياً ميسوراً ليده وأفواه دوابه وقطعانه ، ثم هو بعد ذلك يشق السواقي والقنوات ليصل منها الماء إلى كل بذرة بذرها؟!

لا شك أن كليهما أخذ من مصدر واحد ، ولكن أحدهما حمل نفسه على العُسرى ، والآخر حملها على اليُسرى ... وشتان ما بينهما !

فلينهض الراقدون على آذانهم في الشرق الإسلامي مستسلمين في صَغار لعوامل الشقاء والحرمان ، حاسبين أن أحوالهم ضربة لازبة حتى يأتيهم آت من غير أنفسهم ينفخ في الصور ، فإذا الأرض حولهم جيوش وجحافل ، ومصانع ومعامل ، ومعاهد ومعابد ، وحقول وجنات وعيون ، وإذا هم — بقدرة قادر ! — آلهة في الأرض يحكمون !

لينهضوا وليحرروا أنفسهم من قيود التاريخ النفسي الذي انحدر إليهم من الجاهليات فهم يعيشون به في الماضي وإن كانت أجسادهم تلبس أثواب القرن العشرين ...

ولتكن قوارع هذه الحرب أجراساً وأبواقاً تجمعهم وتدفعهم إلى السير مع قافلة سريعة المراكب ، متلاطمة المواكب ، غليظة الأثقال ، حاشدة جبال الحديد والفولاذ ، والقوى العارمة المجنونة التي يقول قائلها : « أنا القدر ! أنا القدر ! يا بني البشر ! »

***

هل لنا أن نزعم أن الحق وصل إلى نفوس أكثر الناس فأدركوا صدقه وجماله ثم مع ذلك رفضوه ، وحينئذ يحق لنا أن نتشاءم في مستقبل الإنسان ؟

أؤكد أنه لم يصل في عصر ما من عصور التاريخ إلا إلى القليل من الناس . وإلى الآن لم تقم دعوة إلى الحق الواضح في الطبيعة بدون أن توضع في طريقها أغشية وعقبات ومعوقات تحجبه وتمنع الناس من إدراكه

والآن ، وقد تيسرت أدوات الدعوة وأدوات الإقناع وأدوات التربية يجب بدء دعوة ...

وإن في الناس لخيراً كثيراً جداً أعظم مما يتضح من النسبة التي نجدها فيهم الآن ...

والدليل على ذلك نجاح أمم الشمال في أوربا خلقياً ، فقد أثرت فيهم التربية حتى أوشكت بلادهم أن تخلو من السجون والجرائم والخيانة حيث الثقة بالنفس الإنسانية وطيدة هناك

إن أدوات صحة النظر في الحياة واتجاهاتها موفورة الآن لأغلب سكان الأرض ؛ ولكنهم مأخوذون عن ذلك بجرائر التاريخ . وكان من الواجب بعد العلم النزير أن يوجد الفكر المادي والقلب الكبير الذي نضج وطاب ؛ ولكن عباب التاريخ وسيوله لا تزال تجرف الطفولة والبذور مع الجيف والقش والغُثاء ... وتلقي الجميع إلى المصب الذي تلتقي فيه الأخلاط والضلالات التي تركها أبناء الجهالة الأولون ...

فلا مفر من فصل البذور والطفولة وعزلها عن مجرى سيل التاريخ وإنشائها بأيد غير ملوثة إنشاء يرضى به هذا الزمان وعلومه وفنونه ، ويؤهل الإنسانية لتلك الخلافة الواسعة المتعاونة في جهاد الطبيعة واستنزال بركاتها وثمراتها .

ولا مفر من تصحيح الفكرة عن الحياة وتوجيهها إلى الإيمان بها كرحلة ممتعة أتاحها القدر لمن يخرج من العدم ، فيجب صرفها في العمل والفرجة والاطلاع على ما يمكن الاطلاع عليه من آفاقها

ولا مفر من تحويل عبقرية الفكر إلى عبقرية القلب والخلق والجسم . فالعلم والفن يجب صقل النفس بهما وإشراب الجسم إياهما وإخراجه على مقتضاهما بحيث لا تتخلف حياة الجسم وقواه وحركاته عن المدى الذي وصل إليه الفكر ... وبحيث لا يتخلف ما في الشارع والحقل عما في مدارس الفنون والعلوم والتجارة والزراعة وما إليها حتى تكون حياة الجماعة صورة ومظهراً صادقاً لحياة الجامعات والأندية الثقافية ، ولا يكون في الأمة مفارقات ومناقضات بين حياة الفكر وحياة الواقع .

ولا مفر من حمل كل إنسان على أن يدرك نفسه ويستغرق في التفكير في حياته وحياة الإنسانية ويتيقظ لتلك القوة والقدرة التي تتسلط بها الإنسانية على القوى العمياء الجبارة وتسخرها في خدمتها

وما الإنسان بدون يقظة للمعنى الفائق والروح السامي الذي في حياته إلا جسد يختلج ويضطرب في ذهول وبلادة ، ويحيا هكذا حياة مغناطيسية آلية

* * *

ولكي ندرك جرائر التاريخ على العقول وأثره في تدليس الحاضر وإفساده وتزوير النفوس سأعيد عليك حديث صورة لا تجهلها عن طرق دراسته على ألسنة المجائز وفي المدارس ومجالس القصص :

يتفتح عقل الناشئ منا فتلقنه عجائز بيته وشيوخ قومه ومعلمو مدرسته تاريخ قوميته وتاريخ الإنسانية بأغلاطه ونقائصه ومحاولات العصور القاصرة في فهم الحياة وجهاد الإنسانية في شق طريقها الأول بين الصخور والمتاهات والعقبات . فما يكاد عقل الناشئ يصل إلى دور الحكم والموازنة حتى يكون قد تطبع بما وعى وأصابه ثقل التخمة وحيرة الامتلاء والتبلبل

ذلك لأن التاريخ لا يدرس على أنه محاولات أولية من الإنسان فيها أخطاء كثيرة ؛ فيجب الحكم عليها حكم دور الرشد على دور القصور ؛ ولكنه يدرس وعليه طابع التقديس والإعجاب بالأقدمين والاعتزاز بهم في مغالاة وتعصب ، وبخاصة تاريخ القوميات والجنسيات

وكان من كبرى نتائج ذلك أن عاش كثير من الماضي السيئ في الحاضر . بل وجدنا جماعات تفر من الحاضر لتعيش في الماضي وترى أنه كان الحياة .. ! وتمدح الناس بما فعلت الجدود وقالوا إنا على آثارهم مقتدون

فلم يفتح أبناء العصور المختلفة عيونهم على حياتهم في زمانهم بل فتحوها على الماضي وعاشوا به في الحاضر ، وظهر أثر ذلك في الافتتان بهوامش الحياة والعكوف على دراسة سطوحها وترك دراسة أصول الحياة وعلومها الطبيعية والتجريبية التي تبقى لها نتائج دائمة تسلم إلى نتائج أخرى في سلم الترقي والتطور

وقد لاقى أكثر الناس الحياة بطباع مدلسة ليست بنت زمانها ، وإنما هي بنت الماضي السحيق ، وحملوا معهم في رحلة العصور خرافات ووثنيات وسخافات احتفظوا بها حتى في القرن العشرين ، ووضعوها حواجز وعوائق في طريق الحياة الحديثة ذات المعجزات والنبوات الدائمة التي لا تحتمل جدلاً أو مخرقة !

وكان من نتائج ذلك أن وجد المصلحون في كل عصر ركاماً من الغباوات والجهالات توضع في طريق دعواتهم إلى الإصلاح والعلم وفتوح الذكاء ونور البصيرة ...

ليس قبيحاً جداً بالطفل أن يعترك مع إخوته على شيء يريده لنفسه ويريدونه لأنفسهم ، فيتصايحوا ويتضاربوا ويحطموا ما أمامهم ؛ لأن الطفل يعيش بالغرائز ، فهو أناني ضيق التفكير لا يدري أن أباه يملك الكثير ، ولا يفهم فضيلة الإيثار إلا بعد التمييز والتدريب

ولكن ما بال الأمم التي رأت خيرات الله تملأ فجاج الأرض تتقاتل على البحر الزاخر والحقول المرعة والجو الواسع ؟ إن ذلك من أخلاق الطفولة وضيق آفاقها وتحكم الغرائز في حياتها، وهذه صفات وجدت لها في مخلفات التاريخ مبررات وحججاً وتأريثاً !

ومن العجائب أنهم يدرسون ما يسمون إليه من الغنى والثروة حين تثور غرائزهم ! وإن الحقد والشر والطمع لتستنفد وتهلك من مال الأمم الأثرة الجشعة ، ومن بذلها الدم الفياض ما لا يمكن للخير والسلام والإحسان والتعاطف والتفاهم أن يستهلكه أو يستهلك عشر معشاره ! !

ونظرة واحدة إلى النفقات اليومية للأمم المتحاربة الآن تكفي في البرهنة على هذا وعلى أن الإنسانية ما دامت مصروفة عن طاعة الحق والعدالة والحسنى ، إلى تحكيم الغرائز الدنيا والانحدار في مجرى التاريخ ، فسوف تظل هكذا تعمر لتدمر، وتعلم لتجهل ، وتتقدم لتتأخر

وكأن المقصود بحياة الإنسان إذا استمر على هذا هو تحقيق مشتهيات الغرائز وإظهار عبقريات النفس البشرية في التخريب بعد التكوين : فهي طوراً تبني وتعيش في صفات البناء وأخلاقه، وطوراً تهدم وتعيش في أخلاق الهدم وصفاته، لتدرك معالم الضدين المتقابلين الأبديين : الخير والشر . . .

ولكن إن صح هذا كتعليل لحياة الشر في الماضي حين كانت الحياة محتاجة إلى دوافع الغرائز لتدريب الإنسان في طفولته على ما تهيئه له الأقدار في مستقبله وتحمله على الاقتحام والكشف وتفتيق الحيلة ، وحين كانت نتائج ثورات غرائزه محدودة ضيقة

لا تتعدى أضرارها إلى هدم أصول الحياة وتحطيم أسس الاجتماع ومخلفات الإنسانية ذات الحرمات والقيم التي لها اعتبارها ، كما هي الحال الآن في نتائج هذه الحرب . . . فلن يصح الآن هذا التمليل بعد أن صار قتال الإنسان كقتال الآلهة لا كخصام الأطفال

وقتال الآلهة — لو كان هناك آلهة إلا الله — تخريب لأصول الحياة وسحق لبراعمها ومناطق نموها . وهم يعلمون بالطبع طرق التسلل إليها والإطباق عليها لأنهم فرضاً خالقوها وواضعو أسرارها ...

فلنوحد الإنسانية بعد أن صار لها قوة الآلهة في التخريب ، كما وحدنا الأرباب !

ولنعلُ بأرواحها وأفكارها عن مستوى بنات الطين والتراب، من كل ذات ظفر وناب !

عبد المنعم محمد طموف

المغزل . والريف . ونفسي

[إلى الشاعر التائه صاحب « أرواح شاردة » الصديق علي محمود طه]

للأستاذ راشد رستم

شردتُ من الحضر إلى الريف — وليس العجب أن يشرد المرء من الحضر إلى الريف — وإلا فأين معنى الشرود ، وأين موطن الشرود ، بل رأين الروح الشَرود ...

أما أنت يا صاحبي ، فقد شردت من الريف إلى الحضر ! ذلك إذا عددنا مصر ، بنيلها المعظم ، وزرعها النضير ، وإنسانها الكريم ، ريفاً وأي ريف ، ثم حسبنا بلاد الغرب بمياهها المعدنية ، ومدنها الفنية ، ورهطها النشيط ، حضراً وأي حضر ...

فهل أنا موفق هنا معك ، أم أني شرود كذلك في هذا الخيال وهذا التشبيه ؟ على أنه إذا كانت الأولى فاني منتصر ، وإن كانت الثانية فلست أنت المنتصر ...

* * *

ولكن خبرني ، ما بالي أثير عليك غبار هذا الجدل وأنا في سكون البكور من صباح منير ، وسط ريف هادىء بديع ! لماذا هذا الجدل وأنا في جو نقي نظيف ، حيث البساطة والسهولة والوضوح ! في هذا الصباح البدري الذي لا تصيح فيه الديكة إلا لكي تدعو النيام إلى القيام ، والذي تحمل فيه الطيور النطاطة تحيات النهار — وهذا أول النور وآخر الظلام !

هذا صباح الريف ، سكون ولكن حياة . وها هي الطبيعة ، ناعسة تتمطى ولا تقوم . وأنا ساح قائم أذكر قول الشريف الرضي ، رضيّ النفس ، شارد الروح ، وهو يقول :

وأكتم الصبح عنها وهي غافلة ... حتى تكلم عصفور على علم

* * *

وها أنذا أتحدث عن هذا الصباح الغريب ، فقد كان صباحاً ساكناً ، ثم ثار ، ثم سكن . أثبت الحقيقة كما جاءت فيه — والحقيقة أصل لكل خيال — فقد جلست الساعة بعد هذا الشروق البهي ، و « مغزلي » في يدي ، وأنا في هذا المكان من الصعيد البعيد ...

وهذه هي الأرض تغمرها مياه النهر الكريم ، تحفها سلسلة هذه الجبال الراسيات ، يضم القوم بينهما هذا الوادي الأخضر السهل الفسيح الممتد

* * *

وإذ أنا في هذه الحال ، هادىء النفس هادىء البال ، إذا بالبلدة الناعسة ، وهي تطرح عنها أطراف الليل ، تستيقظ على صوت مزمار وطبل — جماعة يحجون إلى دير بالجبل بعيد — حتى إذا عادوا من نذرهم وقد مرُّوا علينا بالطريق ، صبحونا مبدرين مبكرين ، ودخلوا القرية وافدين ؛ حيّونا بأصوات البشير ، وتلقيناهم بأحسن تكريم ، وتبادلنا وإياهم في ساعة هذا النهار المنعش الصبوح ، صفاء قلوب في صفاء قلوب

* * *

ثم أداروا علينا من أنغامهم موسيقى ذات دويّ بعيد وحنو قريب ، فأخذت القوم نشوة اليقظة بعد فترة الرقاد الطويل ، وتولتهم هزة الفرح ، فراحوا وزاس الحي يزمرون ويطبلون ، كما أنشأوا (يتحاطبون) ، يحملون عصيهم في الفضاء ، تدور بهم وهم بها دائرون ، يبتعدون ثم يلتفون ، وفي خفة يقفزون ، ليس فيهم طالب ولا مطلوب ، ولا غالب ولا مغلوب ، إذ هم في لهو يمرحون ، وأهل القرية من حولهم معجبون مبتهجون

* * *

حتى إذا تحول الطرب ودارت للرقص أنغامه ، دارت في الساحة من الرجال أربابه ، يتفكهون وإن كانوا به يتباهون ؟ غير أن للخلخال رنته ، وللخال الحبيب سلطته ، وقد دق

الطبل لبنات الحى دقاته ، فنزلن الساحة يخطرن وللقلب وقتها دقاته ، وأثارت بنات الحى فى الحى للرقص موجاته ، فارتفعت فى ميزان (الحرارة) شاراته ، وازدحم الميدان واشتدت حماساته ؛ فقد دارت بنات الحى فى الميدان للرقص دوراته ، وحمى الوطيس واشرأبت من الجمع هاماته ؛ هؤلاء هن للدلال والوقف والعطف سيداته ، وهؤلاء هن للف والميل والدوران ربّاته :

صان الإله رشيقةً مياسةً أربتْ على الغزلان فى الجولان

* * *

ثم خلت الساحة من حسان راقصاته ، إلا التى هى من بنات الحى أبين باناته . هيفاء هيفاء ، تخطر فوق الثرى وكأنها تصعد فى الجو إلى ثرياته ، خفةً ورشاقة وسناء ؛ بينما تراها هنا إذ تراها هناك . وهى إن حنَت على المشيب أقبلت عليه ترعاه ، فتجعله من فرط الرضا شباباً ... فإذا تجنَّت على الشباب تحولت إليه تسبيه هياماً فتجعله هباء أو سراباً ...

وكأنى بهـا حمامة الصبح وهذا هو الصبح قد لاح ، فهل تبعد يا أليف الهوى وهـذا هو الإلف قد بان وسبحان الفتاح ؟ تعال . تعال . خذ الخصر بيمناك ، ودر بالساق مع الساق ، ولا تقل أين الساق . إن للحياة مداها ، وللروح فى حب الرضا قرباها ، ومناها ، ونجواها ...

* * *

وانظر الآن ! هذه هى الخيل تجرى فى أعنتها وفق هواها ، تدب دبيب السعد والخيلاء والخير معقود على نواصيها . وهؤلاء فرسانها لا يستطيعون لها كبحاً ، فتفزع تدخل بهم الساحة مسرعة ، كأنها تأبى إلا أن تأخذ نصيبها فى موكب هذا الصباح ، ولكنها ترتد سريعة جامحة ، كأنها من نيران أمامها خائفة ، وما هى إلا ذات الخلخال ، لا تزال فى الساحة قائمة ، لم تترك مكانها ، فكيف إذن للخيالة أن تستبيح الميدان ؟

لـما أن رأتهم مندفعين ، وقفت وقفتها تكشف فيها لهم عن القسى والسهام ، فأدركوا ما قد يصيبهم من كبوات وغرام ، وخافوا على أنفسهم وخيلهم من الأذى والضرام ، وهكذا ارتدوا خائفين وهم هم السادة الشجعان ، من الخيالة والخيل والفرسان .

حتى إذا هدأ الروع ، واستقر الفؤاد ، عادوا بعدئذ إلى الساحة مطمئنين ، بل كراماً نازلين ، يدورون ويدورون ، يلعبون « ويفرّسون »

والخيل تمزع مزعاً فى أعنتهـا
كالطير ينجو من الشؤبوب ذى البرد

وللخيل صيحات وللفرسان صيحات

وهكذا بين جمال وجلال وكر وفر ، وصهيل وتهليل ، تسود البطولة أجواءنا ، وتملك النعومة أرواحنا ...

* * *

حتى إذا بلغت نشوة الفرح حدها ، وضيافة الصبح سمتها ، وأذن مؤذن الركب بالرحيل ، وأخذ القوم يعودون فى هدوء آسفين ، ونحن من ورائهم كذلك آسفون ؛ وخلا المكان ، وانفض السكان ، وإذا بى قد شردت من حالى دون أن أبرح مكانى ، وإذا بى يشتد شانى دون أن أترك شانى ، وإذا بى أرى منزلى بجوارى فألجأ إليه لأجد عنده خلاصى

* * *

وإنى وقد آخذ مقامى من هذا الريف النظيف ، أبدأ كل يوم فيه بمـا قد هويته صغيراً ، ولا أزال أهواه كبيراً : « غزل » الصوف بهذا المغزل القديم المعروف ؛ إذ أجد للفكر إذا ما شرد ، وللنفس إذا ثارت ، راحة وسكوناً مع دورات هذا المغزل الأنيق الرشيق العتيق

وإنك لتراه يتدلى فى الفضاء دائراً دائراً ، معلقاً فى خيط رفيع دائماً ؛ ينساب من بين أنامل ماهرة ، قد تكون كذلك ناعمة ، تجعله خيطاً رفيعاً ناعماً ، تتجلى فيه دقة الصنعة إذا ما جملته رفيعاً رفيعاً ، متيناً متيناً

تراه محمّلاً مثقلاً ، معلقاً فى ذلك الخيط المتين الرفيع ، كما يتعلق الهائمون الشاردون بالأمل فى خيط منه وحيد رفيع

يدور المغزل فى الفضاء مثقلاً مثقلاً ، كأنه النفس المثقلة بأنواع الهموم ، تنزلها يد الأقدار ، تلفها عليها فى سكون ودوام ، ثم تدور بها فى طيات هذه الحياة

هذا المغزل الذى بين يدىَّ ، هو كهذه النفس التى بين جنبىَّ ، حملتها كبيرة صغيراً ، ولا أزال أحملها كبيرة كبيراً

هذا المغزل بينما تراه خلياً حيناً ، مثقلاً أحياناً ، يدور فى فضاء الله ، كما تدور فيه هذه النفس ثائراً ، هادئاً صابراً

هذا المغزل مهما كان عتيقاً عريقاً ، فإنه متجدد دائماً ، نظيف دائماً ، رشيق دائماً ...

(مزرعة كوم المنصورة) راشد رستم

مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

ديوان البارودي

للدكتور زكي مبارك

تمهيد — نقد مقدمة هيكل باشا — نصيب البارودي من علوم اللغة العربية — الخمريات والغراميات — الجديد فى شعر البارودي — التحكم فى التاريخ — الطبيعة بين الصمت والنطق — المتنبرون فى عهد توفيق — تاريخ الشعر العربي — المصريون فى عهد البارودي — ما صنع البارودي فى منفاه

تمهيد

المقرر للمسابقة هو الجزء الأول، طبع دار الكتب المصرية وشرح الأستاذين: على الجارم بك، ومحمد شفيق معروف؛ وهو يطلب من مخازن وزارة المعارف ومن شهيرات المكاتب

وللشارحين كلمة يشكران فيها النقراشي باشا «لاهتمامه بإنجاز طبع الديوان»، وهيكل باشا «لتكرمه بكتابة التقديم» وجعفر والى باشا «لكبير معونته»، والسيد أشرف البارودي «لإمدادهما بأصول الديوان الخطية»

وكنت أحب أن يشير الشارحان إلى أن عناية وزارة المعارف بطبع دواوين الشعراء الذين رفعوا اسم مصر فى العصر الحديث ترجع إلى العرابي باشا، فهو صاحب هذه الفكرة، وفى عهده ظهر ديوان حافظ ابراهيم سنة ١٩٣٧

وكنت أحب أيضاً أن يشيرا إلى الظرف الذى كُتب فيه التقديم، وقد تركه الدكتور هيكل باشا بدون تاريخ، لسبب توضحه الأسطر الآتية:

كانت وزارة المعارف إلى الدكتور هيكل فى وزارة محمد محمود باشا الأخيرة، وفى تلك الأيام بُدِىء بطبع ديوان البارودي، وكان مفهوماً أن هيكل باشا سيكتب مقدمة الديوان؛ ثم استقالت وزارة محمد محمود باشا وتلتها وزارة على ماهر باشا، وفى الوزارة الثانية كان النقراشي باشا وزير المعارف، فكتب إلى هيكل باشا يدعوه إلى كتابة مقدمة الديوان، مع أن ظواهر الأحوال كانت تقول بأن بين الرجلين شيئاً من الجفاء

ولو أشار الشارحان إلى هذه اللمحة الأدبية لكانت شاهداً جديداً على ما عند رجالنا من كرائم الآداب

وسكت الشارحان عن الشارح الأول، كما سكت عنه هيكل باشا، وفى الطبعات العلمية لا يجوز هذا الإهمال

ويستطيع طلبة السنة التوجيهية أن يسألوا أساتذتهم عن ذلك الشارح، إن كان يهمهم الاستقصاء

نقد مقدمة هيكل باشا

تقع هذه المقدمة فى أكثر من ثلاثين صفحة بالقطع المتوسط، وقد كُتبتْ فى ساعات غلب فيها الصفاء، فقد كان الدكتور هيكل فى عزلة تشبه عزلة النساك بعد خروجه من المعارف، وكان يعانى الكلَف بالخلوة إلى القلم بعد أن شُغِل عن الأنس به عدداً من الشهور الطوال

هى مقدمة جيدة جداً، وربما جاز القول بأنها أجود ما صدر عن الدكتور هيكل من الدراسات الأدبية، فقد نفذ إلى أعماق العبقرية البارودية، واستطاع فى بعض النواحى أن يذيع سرها المكنون

وسيجيء فى الامتحان التحريرى سؤال أو أسئلة من هذه المقدمة، فمن الواجب أن نتناولها بالنقد الرفيق، لنساعد طلبة السنة التوجيهية على إدراك ما فيها من مقاصد وأغراض، فالنقد هو الذى يوجههم إلى فهم مدلولها الصحيح، وهو الذى يهديهم إلى مكانة البارودي فى تاريخ الأدب الحديث

نصيب البارودي من علوم اللغة العربية

نص الدكتور هيكل باشا مرتين على أن البارودي كان يجهل النحو والصرف والعروض، والنص على هذا مرتين فى المقدمة يشهد أن هيكل باشا لم يكن فى هذا الحكم من المرتابين

فممن أخذ (حيثيات) هذا الحكم القاسى ؟

أخذه عن الشيخ حسين المرصفى، فقد نص فى (الوسيلة الأدبية) على أن البارودي كان يجهل النحو والصرف والعروض؛ وكان يجب على الدكتور هيكل أن يذكر أن الشيخ المرصفى لم يقل

هذا القول إلا فى مقام الثناء على ما كان البارودى يملك من بوارق الفطرة والطبع ، وإلا فمن العسير أن نصدّق أن البارودى كان يجهل ما لا يجوز جهله من أصول النحو والصرف والعروض

ولكن أين الشواهد على علم البارودى بعلوم اللغة العربية ؟ فى الديوان رسالة مثبتة بالزنكوغراف ، وهى رسالة لم يلتفت إليها الدكتور هيكل ، ومنها آخذ الشواهد على ضعف الحكم الذى نقله عن صاحب « الوسيلة الأدبية »

وإلى معاليه أسوق الحديث :

١ — فى ص ٤٣ جاء بخط البارودى فى وصف ما عانى هو ورفاقه من هياج البحر :

« ومكثنا على ذلك ثلاثاً ، لا نجد فيها غياثاً »

وعند تأمل الخط نجد أن الأصل (ثلاث) و (غياث) ، وأن البارودى التفت إلى الخطأ النحوى فرسم ألفين فوق هاتين الكلمتين ، وهذا يشهد بضعفه فى النحو ، ولكنه لا يشهد عليه بجهل النحو ، بدليل هذا التصحيح

٢ — وفى ص ٤٦ نجد بخط البارودى :

« هيهات ، ما كل شامة خالاً ، ولا كل حلقة خلخالاً »

وعند تأمل الخط نرى أن الأصل (خال) و (خلخال) ، ونرى البارودى وضع ألفين فوق هاتين الكلمتين

والتصحيح فى هذه المرة أدق ، فهو فى الشاهد السالف كان التفاتاً إلى حكم الظرف وحكم المفعول فى الإعراب ، وهو فى هذا الشاهد التفات إلى حُكم (ما) الحجازية ؛ وكان يسعه أن يبقى هاتين الكلمتين من التصحيح ليسير مع النحوى الذى يقول :

وَمُهفهَفِ الأعطافِ قلت له : انتسب
فأجاب : ما قتـلُ المحب حرامُ

والذى يَفرِق بين (ما) الحجازية و (ما) التميمية لا يوصم بجهل قواعد اللغة العربية

٣ — وفى ص ٤٩ نجد بخط البارودى :

« بل حسبت أن قطرات المُزن ، دموع أسالتها زفرات الُحزن » ! ؟

وننظر إلى العين من دموع فنراها كانت (عاً) ثم أصارها البارودى (عٌ)

فما معنى ذلك ؟ معناه أنه توهمها أولاً مفعول (حسب) ثم أدرك أنها خبر (أن) والذى يجهل النحو لا يدرك هذا الفرق

٤ — وفى الصفحة نفسها نجد البارودى يقول :

« اللهمّ يا هادىَ الضُّلاّل فى الليل الدلهمّ ، وناصر الملهوفين فى غمرة اليوم المسلهمّ »

وننظر فنجد البارودى محا كلة (الملهوفين) وأثبت كلة (الهُلاّك) حرصاً على الازدواج ، فنفهم أنه كان يعرف علم البديع

٥ — ومن هذا ما جاء فى ص ٥٠ حيث يقول :

« ما وعد إلا وأخلف ، ولا سالمَ إلا وأتلف »

فقد محا (سالمَ) وأثبت فوقها (أوعد) حرصاً على الجناس والطِّباق !

٦ — وفى مقدمة الديوان يحدثنا البارودى عن (ذِكر الشىء باسم غيره لمجاورته إياه) فنفهم أنه كان يعرف أشياء من علم البيان

٧ — ونصّ البارودى على قصائد فيها (لزوم ما لا يلزم) ، فكيف يقع هذا من رجل يحكم عليه هيكل باشا بجهل القوافى ؟ يضاف إلى هذا أحكامه على الشعراء وهى تدل على بصره بالنقد الأدبى ، وكذلك تدل استفادته من المعاجم على فهمه لأصول علم الصرف

وصفوة القول أن البارودى كان على بينة من علوم اللغة العربية ، وإن لم يصل إلى التفوق فى تلك العلوم ؛ فقد كان يعتمد على فيض الفطرة والطبع ، وهما أفضل أدوات الشعراء

الخمريات والغراميات

وطاب للدكتور هيكل باشا أن يؤكد أن البارودى لم يكن صادقاً فى الخمريات والغراميات ، وقد جزم بأن قصائده فى هذين الفنين لم تكن إلا محاكاة لأساليب القدماء

وهذا الحكم صواب من جانب وخطأ من جانب ، فهو صحيح فى الخمريات لأن أشعار البارودى فى الخمر لا تخلو من ضعف ، ولكن هذا الضعف لا يرجع إلى أن الخمر لم تذهب بعقل البارودى ، كما يقول الدكتور هيكل ، وإنما يرجع إلى أن وصف الخمر فن لا يحسنه جميع الشعراء وإن كانوا فى حبها من الصادقين

أما غراميات البارودى فهى صدق فى صدق ، وأشعاره فى العشق آية فى الإفصاح عن صَبَوات القلوب ، وقد تذكّر بغراميات الشريف فى بعض الأحيان

وما الموجب لأن نقول للبارودي « كذبت » حين يتحدث في أشعاره عن هواه ، مع أنه يقول في مقدمة الديوان :

« إنما هي أغراض حركتني ، وإباء جمح بي ، وغرام سال على قلبي »

أما أن كان الدكتور هيكل يريد تنزيه البارودي من مآثم الفتيان ، فلكلامه وجه مقبول ، فقد كان البارودي رئيس الوزراء في بعض العهود ، ويجب على الوزراء أن يعيشوا بلا قلوب

الجديد في شعر البارودي

ويقول الدكتور هيكل باشا إن الجديد الذي استدعى الإعجاب بشعر البارودي « هو نزوعه إلى تصوير الواقع كما هو في بساطة وسلاسة وقوة دون اعتماد على محسنات اللفظ البديعية »(١)

ونقول إن هذا التصوير بعيد من أذهان من عاصروا البارودي وكانوا مولعين بالزخرف والبريق ، وإذن يجب على الدكتور هيكل أن يتلمس رأياً غير هذا الرأي ، وهو قد اهتدى إلى الصواب بعد ست عشرة صفحة فقال :

« إن هذا الشعر كان جديداً كله ، كانت معانيه الأقدمين جديدة ، وكانت ممارسته إياها جديدة ، وكانت رياضته القول على مثالهم جديدة »(٢)

فإذا أعيد طبع الديوان فليتفضل الدكتور هيكل بحذف الحكم الأول والاكتفاء بالحكم الثاني

التحكم في التاريخ

للبارودي قصيدة لامية قال فيها ما قال في التنديد بالمصريين ، وينص الديوان على أنها قيلت في عهد « إسماعيل » ولكن الدكتور هيكل يعتسف فيحكم بأنها قيلت في عهد « توفيق »

فهل يملك الحق في نقل القصائد التاريخية من عهد إلى عهد ؟

إن عصر إسماعيل كان مبعث نهضة بإجماع الآراء ، وعصور النهضات لا تخلو من بواعث الحب والبغض ، والحمد والملام ، فكيف نستبعد صدور قصيدة ثائرة في عهد إسماعيل ؟ وكيف عرف هيكل باشا أن البارودي لم يذق في عصر إسماعيل غير القرار والاطمئنان ؟

لو أن الدكتور هيكل التفت إلى القصيدة التي أثبتها بيده في ذيل الصفحة الثالثة والعشرين لرجع عن ذلك الاعتساف ، وهذه إشارة فيها كل البيان

الطبيعة بين الصمت والنطق

وشاء الدكتور هيكل باشا أن يحكم بأن « البارودي إذ كان يسجل الصور في شعره لم يكن يسجلها في صمتها وسكينتها على ما يولع به عشاق الطبيعة الصامتة »

فما معنى هذا الكلام ؟ ومتى صمتت الطبيعة في أوصاف الشعراء ؟

لعله يريد أن يقول إن البارودي كان قويّ الشعور بحيوية المناظر الطبيعية ، وبما فيها من فاعلية وانفعال ، فقصّر به التعبير عن بلوغ ما يريد

المستنيرون في عهد توفيق

هم في نظر الدكتور هيكل رجال الجيش ، وقصرُ الاستنارة على رجال الجيش في ذلك العهد غير صحيح ، فقد كان في مصر جماعات علمية وأدبية تفوق في الاستنارة رجال الجيش ، والصواب وضع كلمة « السياسيين » في مكان « المستنيرين » فقد كان رجال الجيش ساسة البلاد في ذلك الحين

تاريخ الشعر العربي

ويقول الدكتور هيكل إن الشعر العربي قضى ألف سنة في انحلال إلى أن بعثه البارودي ، فمن أين جاء بهذا القول ؟

أنحكم على ماضينا الأدبي هذا الحكم الظالم في سبيل إنصاف البارودي ؟ ليرجع الدكتور هيكل إلى « مختارات البارودي » إن شاء ، فإن فعل فسيعرف أن البارودي يرى غير ما يراه ، فقد وصل اختياره إلى القرن السابع ، وصح له أن يحكم بأن سبط ابن التعاويذي وهو من شعراء القرن السادس كان يتابع الشريف الرضي ويمشي على أثر مهيار الديلمي . والبارودي الذي اعترف بحياة الجزالة الشعرية في القرن السابع كان من شعراء القرن الثالث عشر ، وعلى هذا تكون المدة التي انحل فيها الشعر نحو خمسة قرون ، فكيف يجعلها الدكتور هيكل عشرة قرون ويومي بإسقاطها من الحساب ؟

يشفع للدكتور هيكل أنه أراد المبالغة في التنويه بمقام البارودي ، ولكن الإحسان إلى البارودي كان يتم بدون الإساءة

(١) ص ١٤
(٢) ص ٣٠

البحر . . .

[البحر لا ينام وفي يقظة البحر تعزية لروح لا تنام]
« جبران »

للدكتور حسن عثمان
مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

ضاقت نفس الشاعر بالأرض اليابسة التى تزدحم بالمدن ، وتمج بالحركة ، وتضيق بالتقاليد ، وترهق بالأوضاع والمظاهر ، فانطلق إلى الماء الفسيح ، إلى البحر الطليق ، يلتمس عوناً وملاذاً . واقترب منه رويداً رويداً وهو يشخص ببصره إلى زرقته من بعيد ، وصوت أمواجه المتلاطمة يعلوها الزبد يضرب فى أذنيه ، ورائحة البحر المِلحة تملأ صدره ، ورياحه تتخلل غصون الشجر ، فتهتز وتتمايل ، وتخرج منها أصوات تجاوب أصداء البحر . وأخذ الشاعر يطيل السير وحيداً على شاطئه دون أن تُسمع صوت أقدامه ، وهو ينظر مطرقاً إلى هذه الأمواج تصطفق ثم تنساب على الشاطئ . ويتأمل ويفكر ويحلم وينعم الطرف فيما هو قريب وفيما هو بعيد ، إلى أن يضيع نظره فيما وراء الأفق ، فى رهبة وسكون

ثم يقطع تفكيره وسكونه أصوات حوله فيتلفّت ، فإذا به يرى أنماطاً من زبانية البشر ، من عبيد الأرض ، يهرعون إلى البحر لكى يطفئوا نيرانهم ، ويطهروا نفوسهم من الآثام والخطايا . ويلمح الشاعر فى ناحية قصيّة نفوساً هالعة وقلوباً دامية تصرخ من أعماقها فى الظلام . . . فيسارع إليها ويدرك شكانها لأول نظرة . . . فتثير فى نفسه كل هذه الرؤى كوامن الشجن ، وتهتز مشاعره ، وتنهمر دموعه اللاذعة الساخنات غزيرة مختلطة بماء البحر الملح . ويحس البحر الواسع الرحيب هذه النيران ، ويلمس تلك الخطايا والأشجان ، فيقبلها ولا يلفظها . ويطهر الآثام ، ويأسو الجراح

وترك الشاعر مكانه واعتلى ظهر سفين مطوّفاً إزاء الشاطئ فشاهد صور اليابسة وألوانها . فهذه رمال وكثبان صفراء ، تعلو من بينها باسقات النخيل ، وتنحسر عنها مياه البحر الزرقاء ؛ وتلك جبال شاهقات تكللها الخضرة ، وأخرى صخور جرداء شامخات توازن بارتفاعها عمق البحر ؛ وأولئك هم الصيادون والغواصون يجمعون اللآلئ والمرجان والأصداف والأعشاب من كنوز البحر وعجائبه ؛ وهاتيك الطيور البيضاء تهبط إلى سطح الماء تلتقط الأسماك كأنها تشكو عصف البحر ، فتعلو فى جوف الطيور إلى الفضاء ؛ وهذه الجزر وتلك الصخور

إلى تاريخ الشعر العربى . فليتفضل بمراعاة هذا الجانب من مقدمته فى الطبعة التالية ، إيثاراً للعدل ، فما كان فى أحكامه الأدبية من الظالمين

المصريون فى عهد البارودى

حكم الدكتور هيكل بأنهم لم يكونوا يعرفون اللغة العربية ، وإنما كانوا يتحدثون بلغة أخرى هى العامية

وهذا الكلام يحتاج إلى تحديد ، فإن كان يريد الخواصّ فهو مسرف ، فقد كان هؤلاء فى يقظة عقلية وروحية ، بدليل ما تركوا من نفائس المؤلفات ، وإن كان يريد العوام فهم إلى اليوم يتكلمون العامية ، ولم يستطع جهلهم أن يصد الخواص عن التحليق فى أجواء الأدب الرفيع

البارودى فى منفاه

اكتفى الدكتور هيكل بالنص على حنين البارودى إلى الوطن وهو فى منفاه ، وسكت عن مسألة مهمة جداً ، وهى براعة البارودى فى بعث « المدائح النبوية » بعد أن طال عليها الموت ، ولهذه المسألة تفاصيل يضيق عنها هذا المجال

* * *

أما بعد فهذه ملاحظات لم يكن منها بد ، لأن مقدمة الدكتور هيكل ستكون أساساً لدرس ديوان البارودى ، ومن واجبنا أن ننبه المتسابقين إلى ما يوجه إليها من الاعتراض ، ليكونوا على بينة من مكاسر ذلك البحث الدقيق

وقد بقيت مآخذ لا تستوجب المسارعة إلى التنبيه ، ولعلها تدق عن أفهام طلبة السنة التوجيهية ، أما محاسن المقدمة التى كتبها هيكل باشا فهى أظهر من أن تحتاج إلى بيان

لم يبق إلا النظر فى المقرر للمسابقة من أشعار البارودى ، فإلى الأسبوع المقبل

زكى مبارك

المتناثرة تحيطها مياه البحر، وتتكسر حولها أواذيّه، ويتصاعد على جنباتها رشاش الماء الأبيض؛ وهنا وهناك ينبثق نور الفنار المتألق، يشق حجب الظلام الحالك، ويرسل شعاع الأمل وسط الضباب الكثيف

ويبتعد السفين صوب البحر قليلاً قليلاً حتى يختفي الشاطئ عن البصر، ويتهادى أياماً وليالي طوالاً والأفق كله ماء وبحر، تلونه أطياف الشمس وأعماق البحر؛ فهو تارة أزرق داكن، وطوراً أغبر مصفر. ويمر السفين فوق جوف البحر. إن قاعه أرض وصخور ووديان وجبال وبراكين وقارات وعوالم ساكنة ومتحركة في أعماقه منذ الأزل. إنه عميق جداً. لا يصل الإنسان إلى قراره. ولا يعلم أحد كل ما طواه في صدره. ما الذي طواه بالأمس، وما الذي سيطويه في الغد.

إنه يحمل الأطفال من البشر فوق سطحه الفسيح في رفق وحنو. إنه يجول بهم ويستقبل الشمس إذ تبزغ في الصباح وترسل نورها فوق محيطه الواسع، وتغرب عند الأصيل وهي تودعه بأشعتها الأرجوانية. وفي الليل الصافي الساكن تتلألأ السماء بالنجوم البراقة، ويبدو القمر هلالاً وبدراً ساطعاً خلال السحاب الخفيف، فتنعكس أشعته الفضية على صفحته اللامعة، والنسيم يلمس أمواجه المهتزة المتلاقية. إنه هادئ وادع أليف. إنه يطرب. إنه يبسم وينشد ويترنم.

وفجأة يكفهر الجو، وتتلبد السماء بالسحب، ويومض البرق نذير العاصفة، وتشتد الريح، ويقصف الرعد مدوياً، ويدفع الإعصار أمواج البحر شاهقة تطاول السحاب، ثم تعود فتنكسر وتهوي على صفحته الصاخبة. إنه غاضب. إنه ثائر عنيف. إنه جبار. إنه يدوي بصوته الغاضب إلى عنان السماء. إنه رائع. إنه هائل جداً. إنه يطوح بالسفن فوق سطحه، ويقذفها عالية فوق أمواجه، ثم يهبط بها في لجته السحيقة. إنها ألاعيب تحمل طرزاً من الكائنات ترتدي أثواباً زرقاء وحمراء وصفراء. إنها دمى يمحو البحر ما بينها من فروق لليابس، ويذيب عنها خيلاء الأرض. وكلها تتساوى وتصغر وتتضاءل أمام جبروته. ويفرق واضحاً أمامها الحد بين الأمس المعلوم وبين الغد المجهول، فتتأرجح كلها بين الحياة والموت في لحظات رهيبة ... ونبتون يطلق ضحكاته في الفضاء ساخراً! ... ثم تنجلي العاصفة، وتسكن الريح، ويعود البحر هادئاً وادعاً أليفاً، ويداعب هذه الخلائق التي أرهقها غضبه وثورانه ... وحينئذ تثوب النفوس إلى رشدها، وتعرف القلوب دناءة الأحقاد وصغارة المطامع، وتنقشع عن البصائر غشاوة الباطل وزور البهتان

أيها البحر العريق! يا أبا الأرض ويا أصل الوجود ويا معلم الإنسانية ... أيها الحاجز بين القارات، أيها الواصل بين العوالم، يا من أجرت سحبك أنهار الأرض، وأقامت أمطارك معالم المدنية ... ويا من على سطحك جرت الفلك تحمل ثمار الحضارة ... ويا من شهدت أعطافك جولات القراصنة، وسجلت أمواجك التحام الأساطيل ... ويا من خشعت مياهك فأفسحت الطريق لبني إسرائيل ثم أطبقت على آل فرعون من القوم الظالمين ... !

أيها البحر العظيم! لقد عبدك الأقدمون، ورسم أطيافك المصورون، وردد صدى أنغامك الشعراء والموسيقيون ... إنك هادئ صاف رائق. إنك ثائر عاصف عميق. إنك جليل أزرق. إنك مانع جامع. يقرأ الشاعر على صفحتك ما لا يسطره القلم، وما لا يقرأه الأمهون من الناس. إنه ينصت إلى أساطيرك وقصصك. إنه يستلهم معانيك ووحيك، ويبهره جمالك وجلالك، فلا يطيق النظر إليك، ويغمض العينين دونك، وتشيع في نفسه رائحتك، وتمر في خياله ذكرياتك وصورك

حسن عثمان

مواسم الأدب

للأستاذ كرم ملحم كرم

يوم لنا ويوم علينا. هذا حال الأدب؛ فلا بد فيه من يقظة وهجعة. والأدب وليد الحس، والحس تتفق له حيناً وثبات يصاول بها الفلك، ويدهمه حيناً سكون تغلب عليه فيه نومة... هجعة الموت أهنأها!

فكأن للأدب مواسم يشع فيها ويكشف عن جبينه وقد دانت له مغلقات الوحي، وتفتحت عليه سموى الإلهام. كأنه يتقلب بين سعود ونحوس؛ فيضيء نجمة وقادة ليخبو كمصباح عطش إلى الزيت. فما إن تعصف به الناشية حتى تذهب باليانع من أطاييه، والنامي من أغصانه؛ ويحييه غيث ندي فيتلألأ بسخاء، ويزكو بسماح، ويعلو أبداً فيطول عين الشمس وينفذ إليها ساطعاً منها على الدنيا، مالئاً كل زاوية وهجاً وسنى!

ولقد بحثت عن الأدب فما اهتديت إليه بغير أبواب الملوك، وإنه ليجالس الملوك؛ يهشون له فيبش لهم، ويصدون عنه فيغمز بهم. فإن يهبوا له العطايا ينفحهم بيدائعه، وإن يمسكوها عنه وينتضوا في مقاتلته سيفاً حديداً يناهضهم بلسان أمضى من القاطع الفتاك

وما هي عطاياهم تجاه بدائعه؟... عطاياهم تذوب ونفائسه تبقى؛ عطاياهم تذوب لا تثبت على الأيام، على حين أن نواجبه تفل من عزم الأبد، ولولاه، لولا ما يخلع عليهم من مديح، لتناست الأجيال المتعاقبة معظمهم؛ وحتى أهاجيه تمد آجالهم، فيصونهم الخلود، لكون الأدب تَغَنَّى بمآتيهم، أو أحسن النيل منهم وأبى على الزمن أن يبيد آيات سمت عن التلاشي والاضمحلال

بيد أن فضل الأدب على الملوك لا يمحو فضل الملوك على الأدب. فما بلغ الأدب أشده، بل هو لم يتنفس وتختلج فيه الحياة المطمئنة الوضيئة، لولا أن هؤلاء الملوك يغذونه بعطاياهم، وتوحي به مجالي الأبهة والجلال في معيشتهم وسكناهم. فالمهابة والندى من باعثات الوحي وحوافز البيان. فلا بد لمن تكمن فيه آيات البلاغة أن يحسسهما ويبوح بما يجيش في نفسه من إعجاب وإجلال...

فالتاج والصولجان ينطويان على عظمة ملموسة تفتق العاطفة على جودها، وتستل من أعماق القلوب الكلام المجنح والمنطق الحلال. فيفيض الأديب الموهوب بالبيان الصافي، وينتزع المعاني من مخابئها؛ بل هو يغوص عليها في مظانها يجلو بها العقد النظيم ويدفعه أنيق الصياغة، ساطع الجبين!

وقد تندفع إليه هذه المعاني عفواً، دون ما كد ذهن ولا إجهاد نفس. فالعظمة المنبسطة أمامه بسلطانها وبهائها تبعث في ابه القوة على توليد كل معنى جليل ليعادل بنسج بيانه المشهد السامي المنعة، المحفوف بالنعمة، المتوهج في عينيه

والملك الضلِّيل نفسه لم يبلغ مكانته الشامخة في أدب الضاد لو لم يعش في أحضان ملوك، ويستنشق في بلاط أبيه شميم العزة، ويلمس بيديه فخامة السلطان. فأقبل إلى ساحة الأدب مثقلاً بفخفخة الملوك، وكان أدبه صدى هذه الفخفخة البعيدة المدى المجلببة بالنعمى، اللينة الجانب، المكينة البنيان

وامرؤ القيس، الملك الضليل، في طليعة موكب الأدباء في لغة الضاد. فما اتى الأدب بيانه المنشور في سوى بدائع ذلك الفتى وقد جمحت به العاطفة فانطلقت من كبده حافلة بالقول الشهي والصوغ المحكم الأداء. وتوالت من بعده السلسلة حلقة حلقة، وكلها نم عن طيب أصحاب الجلالة، أو من يستوي في معاقلهم من أصحاب الجاه الوسيع، والظل المأنوس؟

ومن أنطق بالأدب المصفى المتلمس، وابن أخته طرفة بن العبد، وابن كلثوم، وابن حلزة اليشكري سوى الملك عمرو بن هند؟... فإن هذه القافلة من أدباء العهد الجاهلي مدينة لابن هند في الإبداع في النظم والإنشاد. وأنى لابن كلثوم أن يسمعنا معلقته التياهة:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

لولا عمرو بن هند الملك الأثيل المجد الأبلج المنتمى؟

وهذه الشعلة المتأججة في منظوم النابغة الذبياني، أين كنا نجدها لولا النعمان بن المنذر، أبو قابوس؟... فالنابغة لم يسحب في أبياته وقوافيه ذيل الدلّ والإعجاب لولا هيبة السلطان وعاصمه الجليل:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ومثله لبيد. فالنعمان مهّد له السبيل إلى النظم والإجادة وهو في سن تقصر عن البلوغ. فطعن في حضرة صاحب السلطان على الربيع بن زياد العبسي طعنات دامية أزاله بها عن مكانته السامقة وقد صاح بالنعمان والربيع يؤاكله:

مهلاً ، أبيت اللعن ، لا تأ كل معه !

ولن ننسى ابن أبي سُلمى ، زهيراً ، صاحب الحوليات القائل :

سئمت تكاليف الحياة ، ومن يعش
ثمانين حولاً ، لا أبالك يسأم

فإن عليه لهرم بن سنان يداً في إفاضة النظم وفي تذليل المعاني الحسان :

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

والأعشى . ماذا نقول في الأعشى المتكسب ، جوّاب الآفاق ؟ أما أقام بباب الأسود ، أخي النعمان ، يغالي في المدح ويسأل العطاء — والشّى تفتح الفا ؟

هذا في العهد الجاهلي . ولقد كان العهد الإسلامي في مستهله أمضى حافز على النظم والإبداع . فالدعوة الإسلامية بحاجة إلى من ينادي بها ، ويذيع فضائلها ، والخصوم يتألبون عليها . فانتصب المنافحة عنها حسان بن ثابت الأنصاري . واعتمده النبي العربي في الكفاح . وأسمعنا كعب يتيمته :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ ...

وطاف الحطيئة بالأبواب يستندي ويستجدي . ومن أمسك عند يده هدده بقحات لسانه ؟ فأنجده في الجاهلية أبو سفيان ، وأجزل له في الإسلام العطاء عمر بن الخطاب ، فابتاع منه لسانه بثلاثة آلاف درهم لئلا يطلقه في سب المسلمين لا يخشى ، ولا يتحامى فحش القول والتهشيم

ونبض العهد الأموي بالحياة ، فإذا الأخطل يبدو ويقبل في أثره الفرزدق وجرير . ثلاثة معاول للهدم ودك المعاقل الشمخرة . وبسط معاوية يده في استمالة الأدباء فكان للأدب في عهده موسم خصب وسوق نافقة . فكل من أحس في نفسه ميلاً إلى الأدب تبع ميله وماشى هواه . فالعهد بات عهد نظم وخطابة وإنشاء ، يمدح الأدباء معاوية ويزيد ابنه فتمتلئ أيديهم بالعطايا النفيسة ، وينعم الخلفاء ويكسب الأدب !

ولم يعدم هؤلاء الأدباء ساعات لهو يبيحون فيها للنفس سجيتها وينطقون بما ينتفض في قلوبهم من عاطفة مشبوبة وهوى دفين . فيحدثنا الأخطل عن حبه للكأس واستهتاره بابنة العنقود وينصب جرير بفاتنته أم عمرو وقد سلبته صفاء القلب ؛ وتسبيه حور العيون ، فما يمالك أن يقول :

يقتلن ذا اللب حتى لاحراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

ويفضح الفرزدق فسقه في مقاله :

هما دلتاني من ثمانين قامة ...

وهو هو القائل في زين العابدين ، حفيد علي بن أبي طالب :

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد خُتموا

والقصيدة من اسمى المنظوم ، وهي في المدح لا عديل لها ، فمن أوحى بها ؟ ... ابن بنت النبي ، ملك من سلالة ملوك وإن هم ناموا في مطلع نهضتهم عن التاج والصولجان

وعظمة سحبان وائل ، الخطيب البليغ اللسان ، أين تجلت في أبهى جلالها ؟ ... أليس في بلاط معاوية الأول ؟ ... وبيان عبد الحميد الكاتب أين سما ؟ في بلاط الخليفة الجعدي ، خاتمة الملوك الأمويين !

* * *

وزحزح العهد العباسي لثامه فإذا ابن المقفع في خدمة أعمام الخليفة ، وإذا الخليفة العباسي الثاني يدعوه إليه ويكلفه نقل الكتب الأعجمية الدائمة الصيت إلى لغة الضاد . وهكذا نعمنا بكليلة ودمنة ، أنق مثال للأدب الوزين !

واتسع المجال في منتدى الخلفاء لكل ناظم وكاتب . فقام أبو دلامة وأبو معاذ الأعمى بشار بن برد ، في بلاط المهدي . واشتد الإقبال على الأدب . ولم يكن بيت المال في بغداد دون بيت المال في دمشق ، فتألفت المدارس الأدبية ، وبدا المنشئون في سطوة وهناءة . فالعباسيون شاءوا أن يبزوا الأمويين في العلم وبث الدعوة . وما خلا الجو للرشيد حتى أصبح أدب الضاد مشمل هدى ؛ وكان قد أضاء في سمائه الخليل بن أحمد ، وأبو نواس، وأبو العتاهية ، والأصمعي ، وأبو عبيدة ، وسيبويه ، والجاحظ ، والكسائي . وجاء المأمون فإذا أوسع نهضة أدبية في لغة الضاد تتجلى . فما شهدت لغتنا عهداً فواحاً خصباً في الأدب والعلم كعهد المأمون !

وقُبض المأمون فقامت دولة أخيه المعتصم . وفي كنف المعتصم لمع أبو تمام . وكان المتوكل فنبغ في رحابه الشاعر البحتري . وانتهى الموكب إلى المتنبي فتلظت مواهبه في حمى الملوك ، ولا سيا في بلاط سيف الدولة الحمداني

وما شذ الأدب في الأندلس عن القاعدة . فعاش في ظلال الملوك وانطفأ بانطفاء الملوك ، مثله في دمشق وبغداد . فما إن تنقضي الدولة حتى يأوى إلى المضجع . ولقد طال هجوعه نحواً

من ستمائة سنة، فلم يتنفس بسوى انتظام اليازجي الأول في ديوان الأمير بشير الثاني حاكم لبنان

وكان قد بعث في وادي النيل في عهد محمد علي. وبلغ أوجه في دولة عباس حلمي. وقد زانه شوقي وخليل وحافظ وابراهيم اليازجي ونجيب الحداد وولي الدين يكن ومصطفى لطفي المنفلوطي بأبهى حلل البيان. وإنه ليتهادى اليوم في خطوه متفيئاً دوحة أبناء محمد علي الباذخة. فكأنه يستطيب أبداً صحبة الملوك. فلا تقوم له قائمة في سوى جنابهم، ولا تتقد فيه المزعة وتلتهب الحياة إلا وهو بمجالسهم. فوسمه موسمهم، كأن دولتهم دولته، وكأن أبناءه أشباه لهم وأنداد!

(بيروت) كرم ملحم كرم

جميل نخلة المدور

١٨٦٢ – ١٩٠٧

للأستاذ كوركيس عواد

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

٤ – مؤلفاته

الذي لم يقف على شيء من ترجمة المؤلف قد يظن أنه رجل عراقي، وهذا أمر متوقع! فإن جميل نخلة المدوّر، عُنِيَ عناية خاصة بتاريخ العراق، وخدمه خدمة مشكورة يحفظها له التاريخ على مدى الأيام، ويقدرها له أبناء العربية حق قدرها، وعلى الأخص أبناء العراق منهم

فلقد قضى ردحاً من حياته في تدوين تاريخ العراق قبل العهد الإسلامي وبعده، بكتابيه: (تاريخ بابل وأشور)، (حضارة الإسلام في دار السلام) اللذين سنخصهما بجزء من كلامنا في ما يلي من هذا المقال. ودونك لمحة عن كل من مؤلفاته:

١ – تاريخ بابل وأشور

لا نُغالي إذا قلنا إن (تاريخ بابل وأشور) هو أول كتاب ظهر من نوعه في اللغة العربية!

والذي نعهده، أنه لم تشهد العربية منذ صدوره حتى يومنا هذا سوى كتابين في هذا الباب: أحدهما (تاريخ كلدو وأثور)[١] للعلامة المأسوف عليه السيد أدّي شير. وثانيهما رسالة بعنوان: (مقالة في مملكة أثور[٢]) للعلامة البطريرك رحماني. ولم نهتد إلى غير هذه التصانيف الثلاثة باللغة العربية مما يتعلق بهذا الموضوع الواسع النطاق. مع أن الكتب الموضوعة فيه باللغات الأفرنجية تكاد لا تحصى لوفرتها!

على أن لجميل نخلة المدوّر فضل السبق في هذا الميدان؛ فقد نشر كتابه أولاً في مقالات ظهرت على التوالي في اثنين وعشرين جزءاً من المقتطف[٣]. ثم جُمعت تلك المقالات في كتاب خاص طبع ببيروت في المطبعة الأميركية سنة ١٨٧٩ في ٦٢ صفحة. ثم جُدِّد طبعه بمطبعة الفوائد ببيروت سنة ١٨٩٣ في ١٢٨ صفحة

ولا نرى للتعريف بهذا الكتاب خيراً من أن نقتبس من مقدمته الفقرة التالية على لسان مؤلفها[٤]:

«... وألّفتُ هذا الكتاب في تاريخ أشور وبابل، وقد جمعته من أشهر أقوال المؤلفين في هذا الأوان، مما وصلوا إلى تحقيقه بعد شهادة الاختبار والعيان؛ وقسمته إلى قسمين: أحدهما جغرافي بين الحدود والمساحات، والآخر تاريخي ذكرت فيه ترجمة من اشتهر من ملوكهم وعظمائهم، وما اشتهر لهم من الفتوحات وعظائم الأعمال إلى حين انقضائهم ...»

وهذا الكتاب «وقف عليه اللغوي الشيخ إبراهيم اليازجي فهذّب عبارته وصحح مبانيه، فجاء نقياً من الكلف، بريئاً من الكلف، قريب اللفظ على بُعد مرامه[٥]»

وكم كنا نود، لو أشار المؤلف إلى المراجع التي استند إليها في تصنيف كتابه، التي نظنها كانت بالفرنسية، لإجادته هذه اللغة على ما أسلفنا الكلام عليه

(١) طبع المجلدان الأول والثاني في بيروت سنة ١٩١٢ – ١٩١٣، والثالث فقدت مسودته في الحرب العظمى الماضية على ما انتهى إلينا.

(٢) طبعت في بيروت في (٥١) صفحة دون ذكر سنة الطبع. وهي في الأصل نشرت في المجلد الأول من مجلة «الآثار الشرقية»، الصادرة في بيروت سنة ١٩٢٦

(٣) انظر المجلدات الثالث والرابع والخامس من المقتطف، الصادرة في السنين ١٨٧٨ – ١٨٨١ م.

(٤) تاريخ بابل وأشور (ص ٤ من الطبعة الأولى)

(٥) المقتطف (المجلد الخامس، ص ٥٥)

وقد وقفنا منذ زمن على بحث للعلامة الأب أنستاس ماري الكرملي عنوانه : (سلوان الأسرى فى إيوان كسرى[1]) ، فيه نظرات نقدية صائبة للأعلام الواردة فى هذا الكتاب ، وجهها بشيء من العنف ، إلى مؤلف الكتاب ، أو بالأحرى إلى مصححه اليازجي

ومهما يكن من أمر فإن مباحث الكتاب أضحت فى وقتنا هذا قديمة لا يركن إليها ، نظراً إلى ما دخل هذا (التاريخ) من الحقائق الجديدة التى هى ولا مراء وليدة علم الآثار . ولا يخفى أن هذا العلم قد أحرز تقدماً مدهشاً فى مختلف الميادين خلال هذه المدة التى أربت على الستين سنة ! فإذا تركنا هذه الملاحظة جانباً ، وجدنا فى الكتاب بعد ذلك دليلاً واضحاً على ما كان عليه ذلك العلم قبل أكثر من نصف قرن ؟ وفى معرفة ذلك فائدة جليلة لمن يبغى دراسة تاريخ العلوم

٢ — أتالا

صنّف هـذه القصة الخيالية الكاتب الفرنسى الشهير شاتوبريان[2] Chateaubriand سنة ١٨٠١م باللغة الفرنسية[3] وهى رواية انتزعها المؤلف من كتابه (عبقرية النصرانية)[4] ، ولم يكن يومئذ قد أكمله . والحادث الذى تدور عليه الرواية ورد فى أميركة الشمالية ، وذلك أن (شكتاس) أسره جيل من الناس كان عدواً لرفاقه . فحكم عليه بالإحراق ، وكانت (أتالا)[5] ابنة الزعيم الأقوى للقبيلة المعادية ، فمشقت الأسير وخلصته فى الليل وفرت به إلى القفار . أما وصف المؤلف لما انتاب العشيقين من الخوف والأمل والحب ووخز الضمير الذى كان يعذب هذين الفارين الطاهرين ، فمن القطع الأدبية الرائعة ! فى هذه القصة المؤثرة التى وصف فيها الغرام وصفاً بليغاً أوحى شاتوبريان إلى أوربة بعالم جديد . فقد ذكر البحيرات العظيمة والحراج الأبكار التى تغشى أميركة الشمالية ؛ ثم انتقل إلى وصف قبائل هنودها وعاداتهم وأخلاقهم ومعتقداتهم ، وبيّن ما بين الحياة الهمجية والحياة المدنية من التضاد ؛ فزاد ذلك بما فى الرواية من الإفادة

وقد نقلها جيل مخلة الدور إلى العربية ، وطبعها فى بيروت سنة ١٨٨٢ م

والذى نعرفه أن لهذه الرواية ثلاث ترجمات عربية أقدمهن للخورى عيسى بترو الأورشليمى الرومى[1]، ومن هذه الترجمة[2] نسخة خطية فى خزانة باريس الوطنية (Ms. 3680) ، والثانية لجميل مخلة الدور ؛ والثالثة[3] لفرح أنطون ، وقد طبعت هذه الأخيرة فى نيويورك سنة ١٩٠٨ فى ٨ + ٤٨ صفحة

٣ — التاريخ القديم

هـذا الكتاب مختصر فى التاريخ ، لم يعلم مؤلفه الذى جمع مواده من مراجع مختلفة ، مبتدئاً به بسنة ٤٩٦٣ قبل الميلاد ، ومنتهياً به بسنة ٣٩٥ للميلاد ، وقد رتبه على مقدمة وثلاثة كتب ينطوى كل منها على فصول ، وسار فيه بحسب السنين

نقله جميل مخلة الدور إلى العربية ، وطبعه فى بيروت سنة ١٨٩٥ فى ٣٥٦ صفحة[4]

٤ — حضارة الإسلام فى دار السلام

هذا هو أسمى مؤلفات جميل مخلة الدور ، وأعظمها شأناً ، والقطب الذى تدور عليه شهرته . فقد ألفه بطريقة ربما لم يسبقه إليها أحد فى اللغة العربية[5] اشتغل فى تصنيفه زهاء العشر سنوات . فقد نشر منه فصلاً فى المقتطف[6] سنة ١٨٨٠ بعنوان (البصرة فى خلافة المنصور) . فوطأ محرر المقتطف حينذاك لهذا الفصل بالكلمة التالية :

---

(١) المشرق (٥ [١٩٠٢] ص ٦٧٥ — ٦٧٦ بالحاشية)
(٢) ولد سنة ١٧٦٨ ومات فى باريس سنة ١٨٤٨ م .
(٣) عنوانها الفرنسى Atala
(٤) Le génie du christirnisme
(٥) يقرب هـذا الاسم من اللفظة العربية « الأثلة » النبتة المعروفة التى سمي بها بعض النساء العربيات

---

(١) نقل إلى العربية بضعة كتب وبعض منقولاته تاريخها سنة ١٨١٢م
(٢) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية (ص ١٢٠)
(٣) فهرس دار الكتب المصرية (٧ : ٢٤٩)
(٤) فى فهرس دار الكتب (٥ : ١٠١) تفصيلات أخر من هذا الكتاب .
(٥) هـذه تشبه الطريقة التى سلكها برتلمي أحد أدباء فرنسة (١٧١٦ — ١٧٩٥ م) الذى روى على هذه الصورة سفر أحد الأجانب المدعو أناكرسيس (Anacharsis) إلى جهات اليونان قبل وفاة الاسكندر واصفاً ما يستحسنه من عادات اليونان وأخلاقهم وعلومهم . ومثله سفر تليماك Télémaque للكاتب الفرنسى فنيلون (١٦٥١ — ١٧١٥ م) وهذا الكتاب الأخير نقل إلى العربية وطبع
(٦) المقتطف (٥ [١٨٨٠] ص ١٧٧ — ١٨٠)

« هذه النبذة من كتاب قد باشر تأليفه الشاب اللبيب جميل أفندى المدوّر ... [إلى أن قال] : فنطلب له تمام التوفيق إلى إنجاز هذا الكتاب الذى لا تحصى فوائده ولا تثمن فرائده »

ولم تظهر الطبعة الأولى لهذا الكتاب إلا فى سنة ١٨٨٩ م

وهنا ندع القول للمؤلف يفصح لنا عن الطريقة المثلى التى سلكها فى تصنيف هذا الكتاب الخالد ، قال فى المقدمة :

« هذه رسائل ، وضعت فيها عصراً من عصور الإسلام قد أشرق به نور العلم ، وجرت فيه أعمال عظيمة قام بها رجال كبراء ملأوا العالم بآثار جمالهم ، وجعلت الكلام فيها لرحالة « فارسى » طوّفته معظم البلدان الإسلامية فى المائة الثانية للهجرة وطوقته مناصب الدولة برعاية البرامكة إلى أن نكبهم الرشيد ... »

فالكتاب رسائل تبلغ العشر عداً ، كتبها الرحالة الفارسى الخيانى من سنة ١٥٦ إلى سنة ١٨٧ للهجرة ؛ وقد سطر الأولى وهو فى النهروان سنة ١٥٦ ، والثامنة وهو فى بحر تونس سنة ١٨٦ ، والتاسعة وهو فى الشاعر المباركة سنة ١٨٦ أيضاً . أما الرسائل السبع الباقيات فقد كتبها وهو فى بغداد

وقد لخصه من خمسة وثمانين تصنيفاً تعد بحق من أسمى المؤلفات العربية القديمة الباحثة فى علوم الدين واللغة والبلدان والأخبار والأدب وغير ذلك . وما لا بد من ذكره هو أنه لم يدون حقيقة أو يسطر قضية إلا أسندها فى الحاشية إلى المرجع الذى أخذها عنه ، وأشار إلى الصفحة فى كل مرة ينقل من هاتيك المؤلفات الخمسة والثمانين التى ألمعنا إليها . وفى هذا من المشقة ما لا يدركه إلا الذين عانوا مثل هذا التلخيص فى كتاباتهم

ومن يطالع هذا الكتاب ، يدرك أن الغرض من وضعه إظهار طرف من مآثر العرب ومفاخر الإسلام أيام هرون الرشيد والبرامكة . فهو يكشف للقارئ ما كان عليه القوم من علوم وآداب وعادات ومتاجر فى بغداد وغيرها من البلدان . أضف إلى ذلك أنه موضوعٌ على منوال رحلةٍ لرحّالةٍ متفقّه بالعلوم والآداب المعروفة فى ذلك الزمن ، فهو يصف المدن والمعابد والمشاهد والمبانى والسفن والموانئ وهيئات الملوك والوزراء والعلماء والشعراء والمغنين وغيرهم من الرجال ، ويبين ما كانت عليه طباعهم وميولهم وأفعالهم كما وصفهم الواصفون من أبناء زمانهم المعاصرين لهم

وفى الكتاب ، من الفكاهات والنوادر والأخبار المحققة والآراء الصائبة ، ما تقر به العين وترتاح إليه النفس ، لأنه جاء فيها بألفاظ مستعذبة وعبارات بليغة

فهذه المزايا أهابت – على ما نظن – بوزارة المعارف المصرية الجليلة إلى طبعه وجعله كتاباً للمطالعة ، ولَنِعِمَّ ما فعلت !

وقد أبدى أحد الكتاب ارتياباً فى صحة نسبة هذا الكتاب إلى جميل المدوّر ، فقال[1] : « ... وكان الشيخ ابراهيم اليازجى يصحح له (أى يصحح لجميل) ما يكتبه ، وفى أصحابهما من يرى أن حضارة الإسلام لليازجى ، وأنه نحله جميلاً فى أيام إدقاع الأول وإثراء الثانى ! »

غير أننا لا نميل إلى هذا الرأى ، ولا نرى فيه ما يحملنا على تصديقه ، لأن كتاباً يُنفق من العمر فى تأليفه نحو من عشر سنوات مما لا يجوز أن ينحل ، خاصة وأن الشيخ ابراهيم اليازجى لم يكن بتلك الدرجة من الفاقة التى تدفعه إلى مثل هذا البذل العظيم !

٥ – خاتمة

هذه هى مؤلفاته المطبوعة التى بوسع القارئ أن يرجع إليها إن شاء . ولديه تآليف غيرها لم تطبع ، ولم نقف على شىء من أمرها سوى ما ذكره العلامة الأب شيخو[2] من أن لجميل « فى بيت أهله مخطوطات متفرقة أدبية وتاريخية وروائية »

ومما ورد فى نهاية مقدمة كتاب حضارة الإسلام فى دار السلام قوله[3] :

« ... وقد عقدت النية ، إجابة لرغبة علماء المسلمين ، ممن تفضلوا باستحسان هذا الكتاب ، على متابعة سرد التاريخ الإسلامى فى شكل هذه السلسلة من الروايات ، وتنسيقها فى مثل هذا السمط من درر الآيات البينات ... »

والذى يؤسف له أن تلك النية الحسنة لم تتحقق . ولا نرى السبب فى ذلك إلا اشتغاله بأمر الصحافة ، أو إلى أن يد المنون امتدت إليه فاخترمته ! ونحن واثقون من أن أمنيته لو كانت قد جرت مجرى التنفيذ لكنا نتمتع اليوم بذخائر كنز ثمين من الكتب ونرفل فى جنة من الأدب فيها من كل فاكهة زوجان .

(بغداد) كوركيس عواد

(١) الأعلام لخير الدين الزركلى (١ : ١٩٣)
(٢) المخطوطات العربية (ص ١٨٧)
(٣) حضارة الاسلام (مقدمة الطبعة الثانية)

شخصيات تاريخية

٥ ـ تيموستوكل

للأستاذ محمد الشحات أيوب
مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب

قضى تيموستوكل البقية الباقية من حياته وهو يعمل على تنفيذ هذه السياسة ، ويكاد يكون هو الوحيد الذى سار فى هذا الطريق ، فهو لا يألو جهداً إلا بذله للنكاية بالعدو اللدود وهو إسبرطة ، ولكن الشعب الأثينى تخلى عنه ولم يسايره ، إذ داخلته الشكوك من ناحية ، وخشى خطره وأصبح يعتقد أن له مأرباً فى تنفيذ هذه السياسة ، لذلك كان وحده دون معين ولا نصير فى هذه الفترة الأخيرة من حياته وهى الواقعة بين معركة سلامين ومماته (من ٤٨٠ ق ٤٦٤/٤٦٣ تقريباً)

قضى تيموستوكل هذه الفترة شريداً طريداً حتى لم نعد نسمع عنه كثيراً ، بحيث تكاد تكون هذه الحقبة من تاريخ حياته غامضة ، هى غامضة لقلة الوثائق التى تتكلم عنه ، وبالرغم من هذه القلة نستطيع أن نتنسم الأخبار من بين السطور التى كتبت عنها والتى توجد لدينا ، فهذه الوثائق لا تتحدث عنه إلا فى فترات متقطعة ، ولكنها ، على ندرتها ، ثمينة جداً لأنها تخبرنا عن تيموستوكل وعن شىء من نشاطه ، فهى ترينا أن تيموستوكل الشيخ لا يختلف عن تيموستوكل الشاب . ألا يزال هو هو ، كله حركة ونشاط ، لا يعتريه اليأس ولا يفل من عزمه عظم المهمة التى ناط نفسه بالقيام بها ، فهو لا يحجم عن الانتقال من مكان إلى مكان للدس ضد إسبرطة والإيقاع بها أيما استطاع لذلك سبيلاً ، فنراه حيناً فى أرجوس يعمل على قلب نظام الحكم الأوليجاركى وإقامة النظام الديمقراطى مكانه ، وحيناً آخر فى دولتى إيليد وأركاديا . وهو فى كل هذه البلاد يقوض من أسس النظام الأوليجاركى الذى يؤيد الدولة الإسبرطية ويشجع قيام النظام الديمقراطى لكى تكون عوناً للدولة الأثينية ، وفى سبيل ذلك نراه لا يتردد عن أشق المهام ، كتأليف اتحاد من المدن الأركادية لمحاربة اسبرطة ، وينجح فى هذه المهمة ولكن اسبرطة له بالمرصاد إذ تتمكن من إلحاق الهزيمة بهذا الاتحاد الإركادى وتتغلب عليه فى موقعة ديبايا (عام٤٧٢/٤٧١ ق . م) ، فتفتح عينا تيموستوكل ويرى بوضوح كامل أن اسبرطة ما زالت قوية على بأس عظيم بحيث تستطيع التغلب على أعدائها ، فيحاول أن يسلك سبيلاً آخر ، إذ يسعى ، بعد هذا الفشل الذريع ، إلى النيل منها داخل حدودها وذلك بتقويض دعائم نظام حكومتها وإثارة المستائين ضدها من سكانها مثل البيريبك والهيلوث . ولتنفيذ هذه السياسة نجده يتقرب من شخص آخر يشبهه فى المغامرة والجرأة وهو الملك الاسبرطى بوزانياس ؛ وينجح فى التفاهم معه على التآمر ضد الحكومة القائمة ، ويعمل الاثنان للاتفاق مع ملك الفرس ، ولكن المشرفين على الحكومة الاسبرطية وفقوا فى الكشف عن هذه المؤامرة والقبض على بوزانياس ، وقد ثبت لديهم أن تيموستوكل اشترك مع بوزانياس فى التآمر ضد دولتهم ، فطلبوا إلى أثينا معاقبته ، وتلبى أثينا هذا الرجاء وتستدعيه من حيث كان يقيم . ويدلنا هذا على مبلغ كراهيته من الشعب الأثينى حينذاك ، ولكنه لم يأبه لهذا الاستدعاء ولم يحفل به ، بل ظل فى الخارج ، ونحن لا نعرف فى أى مكان كان يقيم فى ذلك الحين ؛ ولكن كل ما نعرفه هو أنه كان يهرب من مكان إلى آخر خوفاً من أن يُقبَض عليه ويُحمَل إلى أثينا فتقتك به إجابة لرغبة اسبرطة ؛ أخذ ينتقل من بلد الى بلد حتى ألقى به عصا التسيار إلى بلد عدو من أعدائه هو أديميتوس ملك « المولوس » فى شمال غرب اليونان ، وقد كان عداء هذا الملك لتيموستوكل شديداً جداً . ولكنه استقبله وأضافه بالرغم من هذه العداوة الشديدة وهذا البغضاء المستحكم ؛ لأن عادات الضيافة عند اليونان كانت قوية لا تبيح للشخص أن يطرد ضيفه ولو كان من ألد أعدائه ؛ بل ولم يقبل هذا الملك أن يسلمه إلى أعدائه ، وذهب إلى أبعد من هذا فشجعه على الهرب ونظم له الوسيلة وجهزه بكل ما يحتاج اليه من وسائل السفر ، فتمكن له الذهاب إلى « بيدنا » فى مقدونيا ، ومنها ركب السفينة قاصداً آسيا لملاقاة ملك الفرس ، ولكن زوبعة تهب على السفينة فتغيرها عن وجهتها حتى تصل إلى جزيرة ناكسوس فى بحر إيجه فيحاول قبطانها

الرجوع به إلى أثينا ، ولـكنه ما زال وراءه بالوعود الخلابة الجميلة حتى حمله على أن يتوجه به نحو مقصده ، ووصلت السفينة آمنة سالمة إلى شواطئ آسيا الصغرى . وهناك نزل منها فى هذه البلاد . وطئت أقدامه أرض « إيفيز » ، فهل تظن أنه أخلد إلى الهدوء بعد ذلك ؟ وكيف السبيل إلى هذا ولا وطن له الآن يتعلق به ، ولا أرض يدافع عنها ، بل هو شريد طريد ؟ من أجل هذا صمم على مقابلة ملك الفرس ليرى ماذا هو فاعل به — وهنا يختلف المؤرخون فى شخص الملك الذى قابله تيموستوكل ، فيقول المؤرخ توسيديد إنه وصل إلى عاصمة الفرس حينما اعتلى أرتاجزرسيس العرش ، ويقول المؤرخ فاينياس ويوافقه على هذا الرأى بلاتارخوس إنه قدم نفسه ليوجرزسيس الذى طالما حاربه لا لأرتاجزرسيس — وهذا الخلاف بسيط لا يمنع الحقيقة الواقعة وهى أنه ذهب إلى عاصمة الفرس وقابل عاهل الفرس أيا كانت شخصية هذا العاهل ؛ وأن هذا قد أغدق عليه النعم والعطايا وخلع عليه كثيراً من الهدايا وعينه واليًا على بعض المدن التى أخذ يسوسها حتى قضى نحبه وهو فى المنفى بعيداً عن وطنه وأرض آبائه وأجداده

هنا يختلف المؤرخون أيضاً فى الطريقة التى مات بها . فمنهم من يقول بأن ملك الفرس كلفه بقيادة حملة لمحاربة الأثينيين فى مصر ، ولـكنه رفض أن يخون وطنه فانتحر لعدم استطاعته تلبية مولاه وسيده . ومنهم من يقول بأنه مات ميتة طبيعية فى عاصمة ولايته ببلدة « ماجنيزيا » فى شمال آسيا الصغرى بعد مرض لم يمهله كثيراً

* * *

ألا ترى إذن إلى خاتمة حياة هذا البطل العظيم ، كيف انتهت على هذا النحو من الذلة والعار بعد أن كان قد وصل إلى قمة المجد وذروة الرفعة والسلطان ؟ ألا ترى أن هذا من شأن العظماء ، لا تسير حياتهم على وتيرة واحدة وإنما يعتريها الرفعة والانحطاط ؛ فأنت لا يمكنك بعد ذلك أن تظن أن تيموستوكل قد خان وطنـه ، إذ لم يصل إلينا شىء يثبت أنه قام بعمل ألحق الضرر ببلاده ، بل استمر مخلصاً لها وفيًا أمينًا ، حتى أنه رفض الذهاب فى حملة إلى مصر لمحاربة أبناء وطنه ، كما ذهب بعض المؤرخين مثل ستيزمبروت Stésimbrote فهو وإن كان قد لجأ آخر الأمر إلى ملك الفرس فإنما كان ذلك اضطراراً منه ، لأنه رأى وطنه يطارده فى كل مكان راغباً الفتك به ، فتخلص من هذا وهرب حيث قابل ملك الفرس الذى أغدق عليه النعم والعطايا ، وشأنه فى هذا لا يختلف عن شأن غيره من كبار اليونان الذين كانوا يضطرون إلى خدمة ملك الفرس حينما يرون بلادهم تنصرف عنهم وتسحب ثقتها منهم ، ونحن بعد هـذا لا نستطيع أن نعتبر التجاءه إلى الفرس خيانة منه لبنى قومه ، وإنما كان ذلك لرغبته فى الحياة والإبقاء عليها . وكيف السبيل إلى كسب العيش ووطنه قد نفاه وشرده حتى أصبح لا يجد مكاناً يلتجىء إليه عند اليونان على سعة بلادهم وامتداد أطرافها . وقد يلومه بعض الناس على هذا الالتجاء إلى ملك الفرس ولا يبرئونه من تهمة خيانة وطنه ، إذ لو كان بريئًا حقاً من هذه التهمة لقدم نفسه إلى المحاكم وهى تفصل فى ذلك حتى ترجع الحق إلى نصابه ، ولكن غاب عن هذا الفريق أنه لم تكن توجد محاكم فى أثينا بالمعنى المعروف لدينا فى الوقت الحاضر ، وإنما كان الفصل فى قضايا الخيانة العظمى راجعاً إلى الشعب وحده ، ونحن نعلم ما كان عليه الشعب الأثينى من تهور واندفاع حينما تعرض عليه القضايا السياسية التى تتطاحن فيهـا المصالح وتتنازع عليها الأحزاب ؛ كلا ! لم يكن ذلك فى استطاعة تيموستوكل ولم يكن هذا الالتجاء إلى ملك الفرس خيانة منه وغدراً بالمعنى الصحيح ، فهو يعتبر من غير شك خطأ ولـكن لهذا الخطأ أسبابه ومبرراته التى تجعلنا لا نغلو فى الحكم عليه . وكيف نغلو فى الحكم على تيموستوكل وكلنا إعجاب بما قام به من أعمال يعجز عن القيام بها كثير من أفراد البشر ؟ ألم يتعهد بلاده فى وقت الخطر ويعدها خير إعداد للمعركة الفاصلة ؟ ألم يحرز لها نصراً حاسماً أبعد عنها الخطر الفارسى إلى زمن طويل ؟ ألم يكن هو من الأشخاص الرئيسيين الذين شجعوا على تكوين حلف ديلوس ونحن نعرف أن هذا الحلف تطور فيما بعد حتى أصبح أمبراطورية تعرف فى التاريخ القديم بالأمبراطورية الأثينية البحرية ؟ ألم يعمل بعـد ذلك على التأسيس والإصلاح وإزالة الخرائب والأنقاض ببناء الأسوار وإقامة التحصينات ، حتى أصبحت أثينا ومعها بيريه قلب بلاد اليونان بل مركز الحضارة اليونانية حتى قال عنها بركليس « إنها أصبحت مدرسة اليونان

١٣ – المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

الحكومة – تابع الفصل الرابع

سبقت الإشارة إلى عمل الضابط، وهو الآن رئيس الشرطة. أما مخبروه الذين لا تميزهم ميزة، فينتشرون في أحياء العاصمة ويختلطون بالناس في المقاهي وكلهم عيون وآذان – وأغلبهم لصوص عُفي عنهم – وهم يرافقون الحرس في دورته الليلية خلال شوارع القاهرة. ولا يسمح لأحد غير العمى بالتجول في الخارج بلا مصباح أو أي نور بعد غروب الشمس بحوالي ساعة ونصف. وقلما ترى سائراً بعد ساعتين أو ثلاث. ولا يكاد الليل ينتصف حتى تمر في العاصمة جميعها فلا تقابل أكثر من عشرة أشخاص أو عشرين خلا المراقبين والحراس وبوابي الحارات والدروب. وعند ما يمر عابر سبيل يناديه الحارس بالتركية: «من هذا؟ [١]» فيرد المار بالعربية: «ابن بلد! [٢]» والحارس الخاص كذلك يصيح: «وحّد الله» أو «وحّد» فقط! فيجيبه السائر: «لا إله إلا الله». ولا يختلف النصارى عن المسلمين في هذا القول، فهم يفهمون التوحيد فهماً مختلفاً. والمفروض أن اللص أو من يشرع في مخالفة القانون لا يجرؤ على النطق بهذه الكلمات. وبعض الأشخاص يجيبون الحارس بصوت مرتفع: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». ويستخدم الحارس الخاص لحراسة الأسواق والأحياء ليلاً، وهم يحملون (نبوتاً) ولا يحملون مصباحاً

والعادة أن يتجول الضابط، أو أغا الشرطة، في شوارع القاهرة. ويرافقه غالباً السياف والشعلجي، أي حامل الشعلة المستعملة إلى الآن[٣]. وهذه الشعلة تشتعل حال إضرامها فلا يصعد لهبها إلا حين تحرك في الهواء، عند ما تضرم فجأة في الخارج. وهكذا تؤدي عمل مصابيحنا المعتمة. وقد يوضع على الطرف المشتعل إناء صغير أو جرة أو يغطى بشيء آخر حين لا تلزم الإنارة. ويقال إن اللصوص كثيراً ما يشعرون بالشعلة في الوقت المناسب فيتفادون مقابلة حاملها. وعقوبة من يقابله الشرطي بلا نور هي الضرب. وقلما يحاول المقاومة أو الهرب. وكان لرئيس الشرطة سلطة مطلقة في ضرب عنق أي مجرم أو مذنب بلا محاكمة حتى ولو كان القانون لا يعاقبه بالإعدام. وكذلك كان له مرؤوسون كما سترى بعدُ. وقد ندر في السنوات الأخيرة مباشرة هذه السلطة. وأعتقد أنه لم يعد يسمح لهم بذلك الآن. ويقوم أعوان الضابط بدورتهم الليلية مع الجنود لأنهم أحسن معرفة منهم بمخابئ اللصوص والأشرار ومناجمهم. ويندر أن يباشر الضابط نفسه سلطة تخرج عن حد القرع أو الجلد.

كثيراً ما يتخذ رؤساء الشرطة وسائل غريبة مثل التي نراها في بعض قصص ألف ليلة وليلة لاكتشاف الجرم. وأذكر هنا حادثاً لا يختلف في صحته أحد على سبيل المثال. وسأرويه بالطريقة

(١) «كيمن دور أ» عوضا عن «كيم دور أ»

(٢) ويجيبه «أعمى» اذا كان لا يرى

(٣) ويخطئ البارون هامر برجستال باستعمال «مشعلجي» بدلا من «شعلجي». فالعامل الأخير لا يحمل مشعلا ولكن شعلة خشبية، وقد وصفت المشعل ورسمته في الفصل السادس

جميعاً»؟ ألم يؤسس لأثينا هذا الأسطول البحري العظيم الذي جعلها دولة بحرية بعد أن كانت دولة برية والذي كان العماد الذي تعتمد عليه الإمبراطورية الأثينية؟ قام تيموستوكل بهذه الأعمال الجليلة لأنه كان يضع مصلحة قومه في المكان الأول من اعتباره فيتناسى شخصه ومطامعه ويتجاهل حتى تنكر له قومه وبنو وطنه.

كان إذن تيموستوكل من بناة مجد أثينا في القرن الخامس حتى يدعونا هذا إلى أن نضمه في صف كبار الآثينيين، فهو لا يكاد يقل شأناً وأهمية عن زعيم آخر من زعماء الديمقراطية، وهو بركليس، وإن كان الناس قد أطلقوا على القرن الخامس عصر بركليس وأفردوا بركليس بهذه التسمية، فإننا نرى أنه يحق لتيموستوكل أن يدعي لنفسه شيئاً من هذا الفخر والمجد فيطالب بأن يسمى هذا القرن عصر تيموستوكل وبركليس معاً.

محمد الشحات أيوب

التى سمعتها : قصد ذات يوم رجل مسكين أغا الشرطة وقال له : يا سيدى ، أقبلت إلىّ اليوم امرأة وقالت لى : خذ هذا القرص ودعه فى حيازتك وقتاً وأقرضنى خمسمائة قرش . فأخذته منها ، يا سيدى ، وأعطيتها الخمسمائة قرش وانصرفتْ . وبعد انصرافها قلت لنفسى : لأنظر إلى هذا القرص ، وتأملته فإذا هو من النحاس الأصفر ، فلطمت وجهى وقلت : سأذهب إلى الأغا وأقص عليه قصتي عسى أن يحقق هذه المسألة ويوضحها ، فليس هناك غيرك من يستطيع مساعدتى فى هذه القضية . فقال له الأغا : إصغ إلى ما أقوله لك يا رجل . أنقل ما فى دكانك ولا تترك فيه شيئاً ثم أقفله ، وبكر فى الذهاب صباح اليوم التالى ، وبعد أن تفتح دكانك صِح قائلاً : يا حسرتاه على أموالى ! ثم خذ فى يديك مدَرَتين واضرب نفسك بهما وصح : يا أسفاً على أموال الناس ! فإذا سألك أحد : ما ذا حدث فقل له : ضاعت أموال الناس ، فقدت رهناً كان عندى لامرأة ، لو كان ملكى لما انتحبت هكذا . هذا كفيل بأن يكشف لنا الأمر . ووعد الرجل بتنفيذ ما طلب منه ، فنقل كل ما فى دكانه . وفى بكرة اليوم التالى ذهب إلى دكانه وفتحه وأخذ يصيح : يا ويلاه على أموال الناس ، وأخذ مدَرَتين وضرب نفسه بهما وجعل يدور فى أنحاء المدينة صارخاً : يا حسرتاه على أموال الناس ! ضاع رهن لامرأة كان عندى ، لو كان ملكى لما أهمنى . فسمعتْ المرأة التى رهنت القرص صياحه وتبينت أنه الرجل الذى خدعته ؛ فقالت لنفسها : اذهبى وارفعى دعوى عليه ؛ وذهبت إلى دكانه راكبة حماراً لتكسب نفسها أهمية وقدراً ؛ وقالت له : يا رجل ، أعطنى ما لى عندك ؛ فأجابها : ضاع ؛ فصاحت : قطع الله لسانك ! هل أضعت مالى ؟ لأذهبن إلى الأغا ولأخبرنه بذلك ؛ فقال لها : اذهبى ! وذهبت إلى الأغا وسردت شكواها ، فبعث الأغا فى طلب الرجل . فلما جاء قال المشتكية : ما لك عنده ؟ فأجابته : قرص من الذهب البندق الأحمر ؛ فقال الأغا : يا امرأة ، عندى هنا قرص ذهبى أود أن أريك إياه ؛ فقالت : أرينيه ، يا سيدى ، فإننى أعرف قرصى . فحل منديلاً وأخذ منه القرص الذى رهنته ، وقال : أنظرى ... فنظرت إليه وعرفته ... فطأطأت رأسها . وقال الأغا : ارفعى رأسك وأخبرينى أين نقود هذا الرجل ؟ فأجابت : يا سيدى ، إنها فى بيتى . فأرسل معها إلى المنزل السياف مجرداً من سيفه ، وعادت بكيس فيه النقود ؛ وأعيدت الخمسمائة قرش إلى صاحبها . ثم أمر الأغا السياف بأخذ المرأة إلى الرُّميلة ، وهى مكان فسيح مكشوف أسفل القلعة ، ليقطع رأسها هناك ونفذ الأمر !

أما أسواق القاهرة والموازين والمكاييل ، فتخضع لمراقبة المحتسب ، وهو يجوس من حين لآخر خلال المدينة ، يتقدمه عامل يحمل قسطاساً كبيراً ، ويتبعه الجلادون والخدم . وهو يمر على الدكاكين والأسواق واحداً واحداً ، وأحياناً يتفقد واحداً هنا وواحداً هناك ، فيفحص الميزان والأوزان والأكيال ، كما يستفهم عن أثمان المؤن من مأكولات وغيرها . وكثيراً ما يستوقف خادماً ما يقابله صدفة فى الطريق حاملاً مأكولات قد اشتراها ، فيسأله عن ثمنها ووزنها . فإذا تبين له أن البائع استعمل موازين أو مكاييل مغشوشة ، أو طفف الميزان أو زاد على سعر السوق ، أنزل به العقوبة فى الحال . والعقوبة العامة هى الضرب أو الجلد . ورأيت مرة رجلاً تنفذ عليه عقوبة مختلفة لبيعه خبزاً ناقص الوزن : خزم أنفه وعلقت فيه كعكة بطول الشبر وبسُمْك عرض الأصبع ، وجرد من ثيابه إلا قطعة من الكتان حول صلبه ، وشُدّ ، وذراعاه خلفه وقدماه فوق قاعدة صغيرة ، إلى قضبان شباك من شبابيك جامع الأشرفية فى أهم شوارع المدينة ، وبقى كذلك حوالى ثلاث ساعات معرضاً لأنظار الجمهور المحتشد وأشعة الشمس المحرقة

وكان ممن عُيِّن محتسباً ـ بعيْد قدومى الأول إلى مصر ـ رجل كردى اسمه مصطفى كاشف ، تولى سلطته بأقسى الطرق ، فكان يقطع شحمة الأذن أو طرفها لجرم مهما صغر ولغير جرم . وفى مرة قابل رجلاً شيخاً يقود حميراً محملة بطيخاً فأشار المحتسب إلى واحدة من أكبرها حجماً وسأل عن ثمنها . فأمسك العجوز شحمة أذنه وقال : إقطعها يا سيدى ! فأعاد عليه المحتسب السؤال مرة بعد مرة فكان الجواب واحداً . فاغتاظ المحتسب ولكنه لم يتمالك أن ضحك ، وقال : « هل أنت مجنون أو أصم » ؟ ؟ فأجاب العجوز : « لا ، لست مجنوناً

ولا أسمع ، ولكنى أعرف أنى إذا قلت ثمن البطيخة عشرة فضة فستقول : « إقطع أذنه » . وإذا قلت خمسة فضة أو فضة واحدة فستقول : « إقطع أذنه » . لذلك اختصرت الأمر وقلت اقطعها ودعنى أتبع طريقى » . ولم ينجه إلا ما فى تهكمه المفاجئ من فكاهة

كان قطع الأذن هو العقوبة العادية التى يوقعها هذا المحتسب، ولكنه اتبع أحياناً طرقاً مختلفة ؛ فقد عاقب جزاراً باع لحماً ينقص عن الوزن الحقيقى أوقية ونصفاً بقطع هذا القدر من ظهره . وأمر بتجريد بائع كنافة حصل على زيادة فى الثمن تافهة من ثيابه ووضعه على الصينية النحاسية المستديرة حيث تسوى الكنافة وتركه كذلك حتى احترق احتراقاً رهيباً .

وكان يعاقب الجزارين بوضع كلاّبة فى أنوفهم يعلق بها قطعة من اللحم . وفى ذات يوم قابل هذا المحتسب رجلاً حاملاً صندوقاً كبيراً صفت فيه قلل فخارية من سمنود وهو يبيعها بوصفها من قنا ؛ فأمر أتباعه أن يكسروا القلل على رأسه واحدة واحدة .

وكان يظهر طغيانه خارج ولايته ؛ ففى ذات مرة خطر له أن يرسل حصانه إلى الحمام ، وطلب من صاحب حمام بجواره أن يعد العدة لاستقباله والعناية بتحميته وتنعيم جلده . فثقل على صاحب الحمام هذا الأمر العجيب وخاطر بأن قال إن أرضية الحمام من الرخام ، وقد ينزلق الجواد فيقع ؛ وقد يصاب ببرد عند خروجه ، فيحسن لذلك نقل ماء الحمام إلى الإصطبل حيث تباشر عملية الحمام . فقال مصطفى كاشف : « إنى أرى السبب غير ذلك . أنت لا تريد أن يذهب جوادى إلى حمامك » . وأمر بعض خدمه أن يطرحوه أرضاً ويضربوه بالعصى حتى يأمرهم بالكف . ولم يأمرهم بالكف حتى مات المسكين

ولسنوات قليلة خلت كانت العادة أن يسعى بين يدى المحتسب عند طوافه بالمدينة لفحص الموازين والمكاييل ، رجل معه ميزان أكبر حجماً من الميزان المستعمل . ويقال إن قب هذا الميزان كان أنبوبة مجوفة بها زئبق ، فكان حامل الميزان يستطيع إذا عرف الذين رشوا سيده أن يرجح إحدى الكفتين بسهولة

ويشرف على الأسواق العامة المستخدمون المكلفون بمراقبة تجارة الباشا وصناعاته المختلفة . ووظيفتهم كوظيفة المحتسب سواء بسواء . وقد اشتهر بعضهم بارتكاب أرذل أنواع البغى والقسوة . وكان أحدهم ويسمى على بك (ناظر القماش) إذا وجد أحداً يملك نولاً خاصاً أو صادفه يبيع ما نسجه ، يشده فى قطعة من هذا النسيج يغمسها فى الزيت والقار ثم يعلقه هكذا على فرع شجرة ويوقد فيه النار ، فأباد الكثير بهذه الطريقة الوحشية . وقد مات هو نفسه حرقاً فى جم غفير أثناء انفجار مخزن بارود بمنحدر القلعة الشمالى سنة ١٨٢٤ . وقال صديق الذى حدثنى عن فظائع هذا الوحش : « عند ما نقلت جثته لدفنها صلى عليها الشيخ المرومى شيخ الجامع الأزهر يومئذ فى مسجد الحسين ، وكنت أقوم بالتبليغ خلف الإمام ، فلما نطق الشيخ بالدعاء ساد السكوت بين الحاضرين الكثيرين ؛ ومضى الشيخ يقول : وكان من الصالحين، فلم يسمع لأحد صوت، فارتبك الشيخ وقال بصوت خافت : ليرحمه الله ؛ ثم قال صديق مواصلاً حديثه : الآن نستطيع أن نؤكد أن مصير هذا الرجل الملعون إلى جهنم، ومع ذلك لا تزال زوجته تقيم له ختمة فى منزلها ، وتوقد له كل ليلة شمعتين فى مسجد الحسين ! »

ولكل حى من أحياء العاصمة شيخ يسمى « شيخ الحارة ، وهو يباشر سلطته للمحافظة على النظام ولفض صغير المشا كل بين السكان ولطرد من يعكر صفو الجيران . وتنقسم العاصمة إلى ثمانية أقسام يرأس كلا منها شيخ يسمى « شيخ الثمن »

وكذلك كان لكل طائفة من الطوائف التجارية والصناعية المختلفة فى العاصمة وفى غيرها من المدن الكبيرة شيخ يحكم فى المنازعات المتعلقة بهذه التجارة أو الحرفة ، ويصدق على قبول الأعضاء الجدد

كذلك يخضع خدم القاهرة لأمرة شيوخهم . ويستخدم الخدم بواسطة هؤلاء الشيوخ إذ يشهدون لهم بحسن السلوك مقابل قرشين أو ثلاثة . فإذا ارتكب الخادم سرقة يلزم الشيخ بتعويض السيد ، ولو لم يحصل على المال المسروق

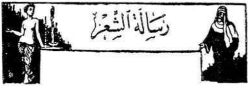
واللصوص أيضاً ، منذ سنوات قليلة اتخذوا كبيراً منهم شيخاً عليهم ، وكثيراً ما كان هذا الشيخ يطالب بالبحث عن المسروقات وتقديم المجرمين للمحاكمة ؛ وكان على العموم يقوم بذلك . ومما يستحق الذكر أن هذا النظام العجيب كان سائداً فى عهد المصريين القدماء[1]

« يتبع »

عدلى طاهر نور

---

(١) أنظر ديودور الصبقلى



الطير المهاجر

للشاعر الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد

علمتنى مواسمُ الروض أن الطـ
ـيرَ شتى : مهاجرٌ ومقيم

أتراني لا أسمع الطير إلا
في رياضى معششاً لا يريم ؟

رُبَّ شادٍ فى هجرة يتغنى
وعليه السلام والتسليم

من جَنوب إلى شمال ، وحيناً
من شمال إلى جنوب يحوم

فله حين يستقلّ وداع
وله حين يُقبل التكريم

خذ من الطير كل يوم جديدا
فسواء جديده والقديم

كم مُوَلٍّ وصفوُه لا يولى
ومقيمٍ وصَفْوُه لا يقيم

عباس محمود العقاد

أريد ...

للأديب أحمد عبد المجيد الغزالي

جف الغدير ! فمن للظامئ الصادي ؟
وصوَّح العود تحت الهاتف الشادي

ومات زهر الربى لا الطير تندبه
ولا الشعاع عليه رائح غاد

حتى الزهور يغول الدهر نضرتها
لكل ناضرة من دهرها عاد

غاضت منابع شعرى وهى زاخرة
وغام أفقى . أما من بارق هاد ؟

طال السرى وطريقى شائك حلك
ولم يغن جديداً ذلك الحادي

أريد لى عالماً يختال (حاضره)
على شوارد هذا العالم (البادي)

أريد دنيا جديد الوحى يغمرها
فأستفيق على شدوى و إنشادى

أريد أن تسكبى الأنغام فى خلدى
شيعت أمسى فهلا تبعثين غدى؟

مالى وقيثارة شُدَّت على خشب
وأنت قيثارة شُدَّتْ على كبدى؟

جفَّ النشيدُ على أوتارها فغدت
بكماء لا تحتفى بالطائر الغرِد !

طوقتها حانياً ، أبكى لياليها
كما بكى والدٌ برٌّ على ولد

فهدْهِدى أنت أحلامي بأغنية
تنساب من نبعك الجارى من الأبد

وجدّدى عهدَها الماضى فإن مرضت
ذكرى أناشيدها فى الحب فانشدى

أنا الذى نهلتْ روحى أغانيها
كما ستنهلُ فى أيامك الجُدُدِ

أريد ياجدولى السارى بأوهامى
أن تستبد بآمالى وآلامى

بالأمس ياجدولى والروض يضحك لى
نديت من عذبك السلسال أحلامى

واخترت من ورق الأزهار لى صحفاً
بيضاً ومن هذه الأغصان أقلامى

واليوم ياجدولى لا الروض يضحك لى
ولا مياهك تروى غلة الظامي

ظمئت ياجدولي والجرح فى كبدى
فهل لمائك يأسو جرحها الدامي ؟

قد كان شطك لى أنساً وعافية   فكنت أقوى على دهرى وأيامى
فما لأنسى به غاضت منابعه   ولم تعد ثرة تجرى بألهامى

أريد يا كرم ، ماء غير رقراق
فقد برمت بهمس الكأس والساقي
سقيت يا كرم كأسى وهي مترعة   على شعاع سرى فى الكأس براق
ثملت يا كرم حتى عفت نشوتها   وعفت صحتى على كأسى و إطراقي
مل الندامى خداع الكأس صائحة   على صباح بنور الفجر دفاق
تميل أعناقهم والكأس دائرة   حتى كأن الطلا تعويذة الراقى !
ألفت يا كرم تلك الخمر صافية   كما ألفت يراعاتى وأوراقى
يا كرم ، ماصار خير الخمر أقدمها   إن كان ثم جديد فالهوى باق

أريد يا زهرات الروض أنفاساً   غير التى عرّفتني الورد والآسا
ما عدت أستروح الأنسام عاطرة   ريانة النفح تنسى القلب ما قاسا
نسيت بالروض أياماً لنا سلفت   كان الندى خمرتى والوردة الكاسا
أشدو بشعرى مع الأطيار صادحة   وقد أقمنا على الغدران أعراسا
فالزهر يبسم رفافاً لفرحتنا   والغصن يختال تحت الزهر مياساً
رغبت يا زهرات الروض عن أرج   قد كان يملؤنى وهما ووسواسا
فضي جيوبك يا زهرات عن أرج   مابات يشعل فى الوجدان إحساسا

أريد يا طير تغريداً كتغريدى   وأن تردده فى الدوح ترديدى
ما للأغانى تغنيها فأسمعها   فلا تطامن من همى وتسهيدى
سئمت يا طير ألحاناً شدوت بها   بين الرياحين أو فوق العناقيد
إن كان عندك لحن غير ما صدحت   به رباك ، فوقعه على عودى
لو كنت كالطير فى الأجواء منطلقاً   لأنشد الطير للدنيا أناشيدى
وبات يتبعه فنى وجدّته   فلن يكون له فنى وتجديدى
يا ويح للطير ، لا زالت هواتفه   تردد اللحن من أيام داود

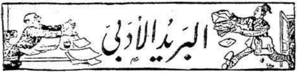
أريد يا ليل ، إن رتلت آياتى   أن لا تخفف أشجانى وآهاتى
دعنى لظلمتك الدكناء أقبسها   نوراً يضىء حنايا دهرىَ العاتى
شقيت يا ليل بالأضواء تغمرنى   فتوقظ الألم الغافى بأناتى
قد كنت يا ليل تسليني إذا عصفت   بى الأمانى فى كيد و إعنات
أما سمعت بعادى الدهر فزعنى   وفوق مسرحه غنى لمأساتى
ياليل أين السكون العبقرى مضى   وخلف القلب مشبوب الصبابات
هذا السكون الذى استوحيته كلمى   ما باله لم يعد وحياً لأبياتى ؟

أريد يا بدر نجوى غير نجواكا   قد كان يسعدنى فى الليل مسراكا
أنداء نورك كانت بلسما عجبا   للحب ما صنعت ـ يا بدر ـ يمناكا
دنياك دنيا الهوى والشعر عشت بها
أجنى بها الزهر ، حتى زهرها شاكا
وما سلمت بدنيا الناس من نكد   قد ضقت ذرعاً بدنياهم ودنياكا
تساقط النور أسلاكا كأن به   ممرا ، يساقطه يا بدر مثواكا
أضأت للناس حتى أظلموا ومضوا   يسخرونك أشرارا وفتاكا
ماذا عليك ، إذا أرسلتها حمما   تنقض يا بدر أجراماً وأفلاكا

أريد يا فجر ألا يشرق النور   وأن يلف شعاع الصبح ديجور
وأن نظل هجوعاً فى مراقدنا   فلا يؤرقنا فى الروض عصفور
ولا تجاوبه فى الأفق ساجعة   مسحورة إلفها بالأفق مسحور
لو كان طير الربى يدرى مهازلنا   يا فجر ، ما شاقه شدو وتصفير
هم روعوه بشر زاحموه به   فى الجو ، فالطير فى دنياه مقهو
ألطير ، سل عنه أذن الروض مرهفة
يجبك زهر على الخلجان منثور
والقوم سل عنهم الحرب التى وقدوا
يجبك أتونها بالنار مسعور

أريد يا أيها الماشى على النار   أن تستفيق على صيحات أشعارى
تدب يا عالمى فوق اللظى عجلاً   غداً ستمضى برب الدار والدار
للنيل فى عنقى حق سأبذله   فى قذف قنبلة أو عزف قيثار
النيل إن رامه باغ به طمع   رمى بجيش من الأشبال جرار
النيل فى كنف الأشبال حوزته   وهم على رصد للطامع الضارى
جروا على مائه والفلك سامرهم
يداعبون خيال الكوكب السارى
أنا المزار الذى غنى لسامرهم   غداً أغني وطير النيل سمارى

أحمد عبد المجيد الغزالى



اقتراح مرفوع إلى جماعة كبار العلماء

رفع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ورئيس جماعة كبار العلماء اقتراحاً جليل الفائدة، مبارك الآثار، يتصل بتنظيم جهود الجماعة وتوفير إنتاجها؛ وقد نظرت الجماعة الموقرة في هذا الاقتراح بجلستها المنعقدة في اليوم الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٣٦٠ ثم قررت تأليف لجنة من بعض أعضائها لبحثه وتدبير طريق تنفيذه برياسة حضرة صاحب الفضيلة المفتي الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم

ويسرنا أن نسجل هذا الاقتراح الهام على صفحات الرسالة، لأنه دليل على اتجاه حسن طالما رجوناه ودعونا إليه

وهذا نص الاقتراح:

« إن هيئة كبار العلماء ركن مهم من أركان الإصلاح في الأزهر، بل الذروة التي يجب بلوغها منه ليعود إليه أولئك الفقهاء المحققون، والمحدثون الثقاة، والمفسرون المطلعون، واللغويون البلغاء، والمؤرخون الصادقون، وأهل الصلاح والتقى

« إن هيئة كبار العلماء هي التي يرجى منها أن تكون تاج الجامعة الأزهرية، ومن أهلها أن يكونوا أساطين العلم وحفاظ الشريعة، ومقوى لغة القرآن لتركن القضاة الواجفة إلى علمهم، وتهدأ النفوس الراجفة بهديهم وإرشادهم، وتطمئن قلوب المؤمنين لقيامهم حفاظاً لليقين، وحراساً على شريعة النبي الأمين »

بهذه العبارات الواضحة حددت لجنة إصلاح الأزهر المؤلفة في سنة ١٩١٠ من المغفور لهما عبد الخالق ثروت باشا وأحمد فتحي زغلول باشا، وصاحب الدولة إسماعيل صدقي باشا أطال الله بقاءه، الغرض من جماعة كبار العلماء، وآمال الأمة الإسلامية فيها

ولم تزل الأمة الإسلامية ناظرة إلى هذه الجماعة الموقرة، ترقب منها أن تكون مصدر خير لها في دينها ودنياها. ترقب منها أن تعمل على إعلاء كلمة الله، ونشر ثقافة الإسلام وحياطتها بما يقويها، ويدفع عنها غائلة المعتدين. ترقب منها أن ترشدها إلى أحكام الدين نقية مما خالطها من شوائب الابتداع في عقائدها وعباداتها ونظمها ومعاملاتها

وإني أقترح تحقيقاً لهذه الآمال الجسام أن يؤلف لجماعة كبار العلماء مكتب علمي دائم، وأن يجعل لهذا المكتب مكان معين معروف شأن كل هيئة رسمية أو غير رسمية من الهيئات التي تعمل لأغراض خاصة

أما مهمة هذا المكتب بعد إنشائه فهي ما يأتي:

(ا) معرفة ما تهاجم به الأديان عامة، والدين الإسلامي خاصة في عصرنا الحاضر، والرد عليه رداً كافياً مقنعاً بأسلوب ملائم لطريقة البحث الحديث

(ب) بحث ما يحصل فيه الاختلاف بين علماء العصر من جهة أنه بدعة يجب تركها أو ليس كذلك، ووضع الأصول الكفيلة بتمييز ما هو بدعة مما ليس بدعة، والعمل على نشر كل ذلك ليرجع إليه الناس، وتنقطع به أسباب الفتنة والنزاع بين المسلمين

وقد سبق للأزهر في عهد فضيلة الأستاذ الأكبر شيخه الحالي أن فكر في تأليف لجنة مشتركة من الأزهر ووزارة الأوقاف مهمتها القيام بهذه الناحية، وألفت اللجنة فعلاً برياسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ إبراهيم حمروش عضو جماعة كبار العلماء، وسارت اللجنة في عملها شوطاً بعيداً قاربت به الغاية

(ج) العمل على وضع مؤلف يحتوي على بيان ما في كتب التفسير المتداولة من الإسرائيليات التي دست على التفسير وأخذها الناس على أنها من معاني القرآن، والتي لا يدل على صحتها نقل ولا يؤيدها عقل، وهذا يشبه ما قام به رجال الحديث من تجريد الأحاديث الموضوعة في كتب خاصة يرجع إليها الناس

(د) إصدار الفتاوى في الاستفتاءات التي ترد من المسلمين في جميع الأقطار إلى مشيخة الجامع الأزهر

وقد فكرت مشيخة الأزهر الجليلة الحالية في هذا الشأن منذ سنة ١٩٣٦ وألفت لجنة برياسة أحد أعضاء جماعة كبار العلماء هو المغفور له فضيلة الأستاذ الشيخ حسين والي — طيب الله ثراه — ثم أسندت رياستها من بعده إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف الفحام وكيل الجامع الأزهر وعضو جماعة كبار العلماء

(هـ) بحث المعاملات التي جدت وتجد في العصر الحاضر

من جهة حكم الشريعة فيها حتى يظهر للناس سمة صدر هذه الشريعة ، وقدرتها على تلبية حاجات الناس فى مختلف العصور

(و) : تنظيم طرق الوعظ والإرشاد والاتصال بالهيئات المعدة لذلك كوزارة الشئون الاجتماعية والجمعيات الإسلامية فى مختلف الأقطار

وقد نصت على هذه الناحية لجنة الإصلاح التى أشرنا إليها سابقاً بقولها :

« ومنها — تريد هيئة كبار العلماء — تتألف لجنة تنسيق الوعظ والإرشاد ووضع قواعده »

كما عنى بها قانون تنظيم الجامع الأزهر الذى وضع فى عهد فضيلة الأستاذ الأكبر شيخه الحالى إذ يقول فى المادة السادسة عشرة منه ما نصه :

« مادة ١٦ : تضع جماعة كبار العلماء نظام الدعوة والإرشاد وتصدره إلى الجهة المختصة لتنفيذه »(١)

(ز) : التنقيب عن الكتب المفيدة فى مختلف العلوم والعمل على إحيائها وإخراجها إخراجاً علمياً متقناً

والأزهر أجدر الهيئات وأقدرها على الاضطلاع بهذا العمل والوصول به إلى ما يرجى له من النجاح

(ح) : الإشراف على مجلة الأزهر والعمل على توجيهها فى طريق تخدم به الحركة الفكرية الإسلامية ، وتبرز به ثقافة الكليات الثلاث

* * *

هذا هو اقتراحى أضعه أمانة أمام جماعة كبار العلماء للنظر فيه بما أعتقد أنه جدير به من العناية والاهتمام ، حتى يتم إقراره وتنفيذه والله يتولانا جميعاً بهدايته وتوفيقه

محمود شلتوت
عضو جماعة كبار العلماء
ووكيل كلية الشريعة

مؤتمر الأديان فى لندن

عقد فى لندن المؤتمر الدولى للعقائد ، والغرض من هذا المؤتمر الذى يرأسه السير فرنسيس يونجهزبند هو نشر روح الإخاء بين بنى البشر من طريق الأديان والتفاهم المتبادل بين مختلف العقائد

وقد أذيع أن فى النية إرسال كتب ورسالات إلى زعماء الأديان غير المسيحية يطلب إليهم فيها إبداء موافقتهم على المبدأ الذى حوته قواعد السلام الخمس التى وضعها البابا منذ سنتين

وقد أرسلت كتب إلى فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر فى القاهرة ، وإلى الزعماء الدينيين فى بلاد العرب وتركيا والشرق الأوسط عامة ، وإلى الزعماء المسلمين والهنود والبوذيين فى الهند وبورما والشرق الأقصى

وقد حضر الشيخ حافظ وهبه وزير المملكة السعودية المفوض فى لندن اجتماع المؤتمر فى الأسبوع الماضى ، وخطب فى نهاية الاجتماع الأستاذ يوسف على الذى كان فى وقت ما مندوباً عن الهند فى عصبة الأمم والعميد السابق للكلية الإسلامية فى لاهور ، فتحدث عن قواعد السلام التى يتوخاها مؤتمر الأديان المختلفة

وعقب ارفضاض الاجتماع أفضى السير فرنسيس يونجهزبند إلى مندوب وكالة الأنباء العربية بحديث قال فيه : « لقد تلقيت من فضيلة الشيخ المراغى مرتين ترحيباً صادقاً بفكرة المؤتمر وتحبيذاً طيباً لعقده ، ونحن على يقين من تأييده التام لفكرة التفاهم بين مختلف العقائد وتآزرها للوقوف فى وجه العدوان القائم عليها جميعاً . ويقينى أن فضيلته هو أحد الذين يقدرون القيمة الروحية قبل أى شىء سواها »

وبهذه المناسبة نذكر أن قواعد السلام الخمس التى ألمت إليها تلك الرسائل هى : ١ — حق الأمم جميعاً فى أن تعيش معاً تحت ظل السلام ٢ — الاتفاق المتبادل على نزع السلاح ٣ — توافر الوسائل المذللة لمراجعة المعاهدات التى تحوى مساساً أو ظلماً فى حق أى شعب من الشعوب ٤ — الاعتراف بحقوق جميع الأقليات ٥ — ضرورة توفر حسن النية إذا أريد حقاً التراضى على سلام مقيم

وفاة موريس ليبلان

توفى الكاتب الفرنسى موريس ليبلان المشهور بقصصه عن أرسين لوبين فى مدينة بربينيان

وقد ولد هذا الكاتب فى سنة ١٨٦٤ فيكون قد توفى عن ٧٧ عاماً ؛ وهو أول الكتاب الفرنسيين الذين اختصوا بكتابة الروايات البوليسية . وقد اشتهر بابتداعه شخصية أرسين لوبين بطل رواياته . ومما يجدر ذكره أن الحكومة الفرنسية عينت موريس ليبلان فى اللجنة التى عهد إليها تحقيق قضية ستافيسكى المعروفة ، وحادث مقتل المستشار برنس . ومن مؤلفاته : أرسين لوبين اللص الظريف ، أرسين لوبين ضد شرلوك هولمز ، المثلث الذهبى ، جرائم أرسين لوبين الثلاث ، أنياب النمر ... الخ

(١) القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ إعادة تنظيم الجامع الأزهر

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)